

**تدبر وفهم كَلامِ رَبِّي
يس والصفات وص**

د. جمعة بن خادم بن سلم العلوي

سلطنة عمان

4 محرم 1448 الموافق 19 يونيو 2026

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
سور يس	4 ..
سورة الصافات	39
سورة ص	83 ..
المراجع	137 ..

سورة يس

تسمية السورة

(سورة يس) هو الاسم الأساسي والتوقيفي في المصاحف وكتب التفسير، وذلك لافتتاحها بهذا اللفظ. وقد أطلق عليها العلماء والمفسرون عدة أسماء وألقاب اجتهادية دلالة على فضلها، منها:

(قلب القرآن): سُميت بذلك لما تضمنته من خلاصة العقيدة (التوحيد، الرسالة، والبعث)، مصداقاً للحديث النبوي: (إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَس).
وروا ذلك حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعاً: إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ (يس) وَمَنْ قرَأَ (يس) كَتَبَ اللهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ [1].

وهي سورة مكية بإجماع المفسرين، وتختص بمواضيع العقيدة كالتوحيد والنبوة والبعث، وقد اختلفت مدارس العد في عد آياتها على النحو التالي:

فهي ٨٣ آية: في العد الكوفي (وهو المعتمد في المصاحف المطبوعة، وأما في المدني والبصري والشامي . فهي 82 آية، يعود الاختلاف إلى حرفي (يس) في مطلع السورة؛ فمنهم عدّها آية مستقلة ومنهم من حسبها مع ما بعدها.

سبب نزول بعض آياتها:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: جَاءَ الْعَاصِمُ بْنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَيَّبَعْتُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمْتُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، بَيَّعْتُ اللهُ هَذَا يُمَيْتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ» قَالَ: فَنَزَلَتْ {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ} [يس: 77] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ [2].

بسم الله الرحمن الرحيم

1 - أخرجه الترمذي (2887) والمروزي في ((مختصر قيام الليل)) (ص168)، وأبو إسحاق المزكي في ((المزكيات)) (24) بلفظه، وقال الترمذي عن سنده: غريب [فيه] هارون أبو محمد شيخ مجهول

2 - أخرجه الحاكم في المستدرک (3606)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرَجْهُ»، ووافقه الذهبي.

*يس (1) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (4) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (5) لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (6) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (7) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (8) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (9) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (10) إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (11) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (12))

تستهل سورة يس بهذه الافتتاحية المهيبة التي تمثل ديباجة عقدية وبيانية بالغة الإحكام.

قوله تعالى: (يس): سبق أن الحُرُوفَ الْمُقَطَّعَةَ تُقرأ بأسماء الحروف (يا، سين)، ومن الناحية الإعرابية: لا محل لها من الإعراب، أو هي في محل رفع مبتدأ والخبر محذوف، أو اسم للسورة.

أمّا من الناحية البلاغية والسياقية: فإنّ الابتداء بالحروف المقطعة فيه إعجاز وتحديّ؛ حيث يُقال لمشركي العرب وغيرهم: هذا القرآن مؤلف من جنس حروف اللغة العربية التي ينطق بها العرب والمتحدثون بلغة العرب، ومع هذا لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.

يُشير ابن عاشور – رحمه الله - إلى أن الابتداء بهذه الحروف لقصد استرعاء أسماع السامعين؛ لأنها نطق بغريب لم يعهدوه في كلامهم، فيتهيأ السمع لما يذكره بعدها.

قلت: وهو كذلك غريب على كل تال للقرآن حتى يتعلم كيفية قراءة الحروف المقطعة تلقينا من متقن.

* (وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ): الواو واو القسم (حرف جر)، و"القرآن" اسم مجرور بالواو وعلامة جره الكسرة، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف (أقسم). و"الحكيم" نعت للقرآن مجرور.

إشراقة بلاغية وسياقية: عدل عن الإقسام بالله أو أسمائه أو صفاته هنا وأقسم بالقرآن تنويهاً بشرفه، وأنه من كلام الله الذي هو صفة من صفاته سبحانه. وصّف القرآن بـ "الحكيم" أي: "محكم" لا يتطرق إليه خلل.

يرى ابن القيم – رحمه الله - أن المقسم به هنا يشاكل المقسم عليه؛ فأقسم بالكتاب الحكيم المشتتمل على الحكمة والهدى، على صحة رسالة من جاء به. ويضيف سيد قطب أنّ هذا الوصف يخلع على الكتاب صفة "الحياة" والتدبير، لا غرو، فهو كلام الله الذي يبث الحكمة في النفوس.

* (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ): "إِنَّ" حرف توكيد ونصب، والكاف ضمير متصل في محل نصب اسمها. "لَمِنَ" اللام هي اللام المرحلة تفيد التوكيد، "من المرسلين" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر "إِنَّ". والجمله هي "جواب القسم".

الجمله مؤكدة بثلاثة مؤكدات: (القسم السابق، وإنّ، والام). هذا التأكيد الطاعي يأتي لرد إنكار المنكرين وعنادهم (تنزيل إنكاري).

يذكر البقاعي - رحمه الله - في نظم الدرر أن هذا الرد الحاسم جاء لتثبيت قلب النبي ﷺ مواجهةً لتكذيب قريش الطاعي، فجاء الخطاب كأنه حصن نفسي يحيط بالرسول ضد تشكيكهم.

ويقول محمد قطب - رحمه الله - : القضايا الرئيسية التي تعالجها السور المكية، هي إنكار العرب المشركين للوحي والرسالة، وأنكارهم للبعث، ثم طلبهم الملح من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم بآية، وتعليق إيمانهم وإتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم على نزول تلك الآية^[1].

قلت: ولعل هذا بعض ما يبين تكثيف تأكيد القسم على رسالته صلى الله عليه وسلم.

* (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ): "على صراط" جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من "المرسلين" (أي أرسلت كائناً على صراط)، أو متعلقان بـ "المرسلين" كشيء مفعول به صلة للمشتق. وقوله (مستقيم): نعت لصراط.

إشراقه بلاغية وسياقية: استخدام حرف الاستعلاء "على" يفيد تمكّن النبي ﷺ من هذا المنهج واستعلاءه به، كمن يركب دابة متمكناً منها. والصراط المستقيم (الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه) استعارة للمنهج الحق.

يُجلي ابن تيمية - رحمه الله - معنى الاستقامة هنا بأنها لزوم الطريقة الموصلة إلى الله بلا انحراف يمنة أو يسرة، وهي تشمل العقيدة الصحيحة والعمل الصالح؛ فلا إرسال بلا منهج، والرسول ﷺ يجسد هذا المنهج حساً ومعنى.

* (تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ): "تنزيل" قرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف العائش بالنصب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف (نزل تنزيل)، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره (أعني/أمدح)، وقرأ باقي الرواة بالرفع (تنزيل) على أنه خبر

(1) - محمد قطب: دراسات قرآنية (ص148) .

لمبتدأ محذوف (هذا تنزيل). وهو مضاف و"العزیز" مضاف إليه، و"الرحيم" مضاف إليه ثانٍ أو نعت.

إشراقة بلاغية وسياقية: الاقتران بين اسمي "العزیز" (القوة والمنعة والقدرة) و"الرحيم" (الرافة والمغفرة) فيه طباق معنوي رائع؛ فالقرآن نزل من قوي قادر على الانتقام من المكذبين، لكنه رحيم بالعباد إذ أنزل إليهم ما ينجيهم.

يوضح ابن عاشور - رحمه الله - أن هذا الوصف تعريض بالمشركين؛ فالله "عزیز" قادر على إهلاكهم وعقابهم على التكذيب، وهو "رحيم" إذ لم يعاجلهم بالعقوبة وبعث فيهم هذا الرسول إنقاذاً لهم.

* (لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ): اللام للتعليل، و"تنذر" فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره أنت. "قوماً" مفعول به أول. "ما" نافية (أي لم ينذر آبائهم)، وجملة "أنذر آبائهم" نعت لـ "قوماً". "فهم" الفاء عاطفة تفيد السببية، "هم غافلون" مبتدأ وخبر.

إشراقة بلاغية وسياقية: التعليل هنا يوضح المقصد الأساسي للرسالة وهو "الإنذار". وجعل "الغفلة" نتيجة لعدم الإنذار السابق (فهم غافلون) يوضح خطورة انقطاع الوحي وأثره في موت القلوب حساً ومعنى.

يشير سيد قطب إلى النظرة النفسية والاجتماعية في الآية؛ فالانقطاع الطويل لزمان الفترة (بين الرسل) يورث البلادة الذهنية والغفلة الروحية، والإنذار المحمدي جاء صدمة إيجابية لخلخلة هذه الغفلة المزمنة.

* (لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ): اللام موطنة للقسم، "قد" حرف تحقيق. "حق" فعل ماض، "القول" فاعل (وهو كلمة العذاب أو قضاء الله السابق). "على أكثرهم" متعلقان بحق. "فهم لا يؤمنون" الفاء عاطفة سببية، والمستقبل مفرع على ما سبقه في علم الله وقضائه.

إشراقة بلاغية وسياقية: إسناد القول إلى "الحق" (حق القول) فيه هيبه وجلال؛ فالأمر قضي واستقر. وتكثير "القول" لتفخيمه وتهويله.

يرى ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله - أن "حق القول" هو مقتضى العدل الإلهي؛ لأن الله علم عنادهم واختيارهم الضلالة فحق عليهم القضاء الناموسي بالشقاء، ولم يظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

* (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ): "إننا" إن واسمها. "جعلنا" فعل وفاعل والجملة خبر إن. "في أعناقهم" متعلق بـ "جعلنا". "أغلالاً" مفعول به. "فهي" الفاء عاطفة، هي: ضمير يعود على الأغلال (أو الأعناق على وجه آخر).

"إلى الأذقان" متعلق بمحذوف خبر. "فهم مقمحون" مبتدأ وخبر، والمقمح: هو الذي رُفِعَ رأسه وِعُضَّ بصره مكرهاً.

إشراقة بلاغية وسياقية: هذه الآية ذروة في التمثيل البلاغي (الاستعارة التمثيلية). لم تكن في أعناقهم أغلال حقيقية في الدنيا، وإنما هو تصوير فني بديع لحال كبرهم وعنادهم؛ فالأغلال النفسية (أغلال الهوى والتقليد) تمنع أعناقهم من الانحناء للحق، فظلت رؤوسهم مشدودة إلى الأعلى كبراً وعناداً، فلا يستطيعون النظر إلى الأسفل حيث الهدى والتواضع.

يلق محمد قطب في (فقه المقارنات النفسية) بأن "الأغلال والتقميح" يمثلان شللاً لحرية الإرادة الإنسانية التي أهدروها بالتقليد الأعمى؛ فلما عطلوا عقولهم، صوّروهم القرآن في حالة جمود ميكانيكي لا يملكون معه الالتفات يمناً أو يسرة.

* (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ): "وجعلنا" عطف على جعلنا السابقة. "من بين أيديهم" متعلق بـ "جعلنا" أو بحال محذوفة من "سداً". "سداً" مفعول به. "فأغشيناهم" الفاء عاطفة، أغشى: فعل ماضٍ والضمير (نا) فاعل، و(هم) مفعول به. "فهم لا يبصرون" مبتدأ وجملة فعلية خبر.

إشراقة بلاغية وسياقية: استكمال للمشهد التمثيلي؛ حوصروا من الإمام ومن الخلف بسواتر تحجب الرؤية، ثم أنزلت على أعينهم غشاوة (فأغشيناهم). هذا إيجاز وإحكام في تصوير عزلتهم المعرفية والروحية التامة عن الحق.

يشير البقاعي - رحمه الله - إلى التناسب العجيب: فالآية السابقة منعت حركتهم الرأسية (مقحمون لا يستطيعون الإطراق للنظر في الآيات الأرضية)، والآية الحالية منعت حركتهم الأفقية والامتدادية (سد من أمام وسد من خلف وغشاوة)، فهم في سجن روحي تائه مطبق.

* (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ): "سواءً" خبر مقدم. "عليهم" متعلق بسواء. "أنذرتهم" الهمزة للتسوية، أنذرتهم: فعل وفاعل ومفعول به، والفعل يؤول مع همزة التسوية بمصدر مرفوع يكون هو المبتدأ المؤخر (أي: إنذارك وعدمه سواء عليهم). "أم" عاطفة متصلة، "لم تنذرهم" جزم ومضارع معطوف. "لا يؤمنون" جملة مستأنفة مؤكدة لمعنى التسوية، أو خبر ثان.

إشراقة بلاغية وسياقية: هذا نفي تام لجدوى الخطاب مع هذه الفئة المعاندة المطبوع على قلبها، واستخدام صيغة "سواء" تعني وصولهم إلى نقطة التبلد والتحجر المطلق التي لا تؤثر فيها المحفزات الخارجية.

يلمح ابن عاشور - رحمه الله - إلى أن المقصد هنا ليس تثبيط النبي ﷺ عن الدعوة، بل هو كشف لطبيعة الخصم المعاند، وتهوين للأمر على الرسول حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات؛ فالعيب في "المستقبل" وليس في "المرسل" أو "الرسالة".

* (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ):
"إنما" كافة ومكفوفة تفيد القصر والحصر. "تنذر" فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره أنت، "مَنْ" اسم موصول في محل نصب مفعول به، "اتبع" صلة الموصول. "الذكر" مفعول به. "وخشي" معطوف على اتبع. "الرحمن" مفعول به. "بالغيب" جار ومجرور في محل نصب حال من فاعل خشي، "فبشره" الفاء رابطة لجواب شرط مقدر أو فصيحة، بشره: فعل أمر ومفعول به. "بمغفرة" متعلق ببشر، "وأجر كريم" معطوف ونعت.

إشراقة بلاغية وسياقية: أسلوب القصر بـ (إنما) قصر الإنذار الحقيقي المؤثر على فئة محددة؛ فالإنذار يقع على الجميع كصوت، ولكنه لا يُسمع كحقيقة إلا من هؤلاء، والاقتران بين "خشي" واسم "الرحمن" فيه بلاغة عجيبة، فالخشية تكون من العزيز أو الجبار، لكن خشيتهم هنا من "الرحمن"؛ لأنها خشية إجلال ومحبة ورجاء، وليست خشية رعب مادي.

يفيض سيد قطب - رحمه الله - هنا في تصوير القلوب الحية؛ فـ "الذكر" يوقظها، و"الخشية بالغيب" هي المحك الحقيقي للإيمان، فالإيمان بالشهادة والعيان لا ميزة فيه، إنما العبرة باتصال الروح بالخالق دون وسائط مادية محسوسة.

* (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ)

"إننا" إنَّ واسمها. "نحن" ضمير فصل لا محل له، أو ضمير منفصل مبتدأ وجملة "نحيي" خبره، والجملة الاسمية خبر إنَّ. "الموتى" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة. "ونكتب" معطوف على نحيي. "ما" موصول مفعول به، "قدموا" صلة، "وآثارهم" معطوف على "ما قدموا"، "وكل" مفعول به مقدم لفعل محذوف يفسره ما بعده على باب الاشتغال (أي: وأحصينا كلَّ شيءٍ أحصيناه). "في إمام" متعلق بأحصينا، "مبين" نعت لإمام.

إشراقة بلاغية وسياقية: الآية إعلان للسيادة والرقابة الإلهية المطلقة وتأكيد لعقيدة البعث. تكرار المؤكدات وعظمة النون (إننا، نحن، نحيي، نكتب، أحصيناه) يعكس جلال الملك والتدبير.

التفريق بين "ما قدموا" و "آثارهم" تفريق دقيق يعالجه ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله - بعمق؛ "ما قدموا" هي الأعمال المباشرة التي فعلها الإنسان في حياته وانقضت بموته. أما "آثارهم" فهي الامتداد الزمني للأعمال (السنة الحسنة والسنة

السيئة، العلم الموروث، الولد الصالح، أو المشاريع المفسدة). فكل حركة وفكرة ومأثرة تبقى حية في صحيفة الإنسان وتنمو بعد وفاته. و"الإمام المبين" (اللوح المحفوظ أو الكتاب الحفيظ) وُصف بالمبين لأنه يظهر الحقائق ناصعة لا لبس فيها يوم القيامة.

* (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (13) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (14) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (15) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (16) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (17) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (18) قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۗ أَلَيْسَ ذِكْرُكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (19) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (21) وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (22) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (23) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (24) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (25) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۗ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (27) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (28) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (29) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۗ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30) أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (31) وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (32))

ننتقل الآن إلى الشوط أو الدرس الثاني من هذه السورة العظيمة؛ وهو شوط "المثل التطبيقي" الذي يجسد الصراع البشري بين الهداية والضلال، ويضع مشركي قريش وكل تال للقرآن أمام مرآة التاريخ:

* (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ): الواو عاطفة أو استئنافية، "اضرب" فعل أمر والفاعل مستتر تقديره أنت. "لهم" جار ومجرور متعلقان باضرب. "مثلاً" مفعول به أول. "أصحاب" بدل من "مثلاً" أو مفعول به ثانٍ على تضمين اضرب معنى (اجعل). "القرية" مضاف إليه. "إذ" ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب، بدل اشتمال من (أصحاب). وجملة "جاءها المرسلون" في محل جر بالإضافة.

إشراقه بلاغية وسياقية: الالتفات من التقرير العقدي السابق إلى التجسيد القصصي بأسلوب "ضرب المثل" هو تشخيص للمفاهيم المجردة لتصبح مشهداً حياً. وتتكير "القرية" وإبهامها دون تسمية (رغم أن مآثور التفسير يذكر أنها أنطاكية) غرضه البلاغي تعميم العبرة؛ فالعبرة بالوصف والنوع لا بالاسم والجغرافيا.

يذكر ابن عاشور - رحمه الله - أنّ ضرب المثل هنا سبق تعريضاً بأهل مكة؛ لأن حالهم كحال أصحاب هذه القرية في تكذيب نبيهم، وفي هذا إنذار مبطن لهم بأن عاقبتهم قد تشابه عاقبة تلك القرية.

* (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ): "إذ" ظرف بدل من "إذ" الأولى. "أرسلنا" فعل وفاعل. "إليهم" متعلق بأرسلنا. "اثنين" مفعول به منصوب بالياء. "فكذبوهما" الفاء عاطفة تفيد التعقيب، وكذبوا فعل وفاعل والهاء مفعول به. "فعززنا" الفاء عاطفة، عززنا: فعل وفاعل. "بثالث" متعلق بعززنا. "فقالوا" عطف، "إنا إليكم مرسلون" إنّ واسمها وخبرها، والجملة مقول القول.

إشراقة بلاغية وسياقية: المادة اللغوية لـ (عَزَّزْنَا) مشتقة من العزة والشدة؛ أي قويناها وجعلنا لهما عزة بالثالث بعد أن استضعفهما القوم، وفي قولهم "إنا إليكم مرسلون" أكدوا الجملة بـ "إنّ" لتناسب مقام التكذيب الأولي الذي قابلوهم به.

يركز البقاعي - رحمه الله - على فقه الدعوة هنا؛ فالتعزيز بالثالث يدل على أنّ الحق يحتاج إلى تضافر الجهود وتوثيق الصفوف، والدعوة ليست عملاً فردياً بل مؤسسياً يحتاج إلى إسناد. كما يلمح سيد قطب - رحمه الله - إلى سرعة حركة النص الفني (أرسلنا، فكذبوهما، فعززنا)، مشهد متلاحق يختصر الزمن لإبراز جوهر الموقف.

* (قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ): "قالوا" فعل وفاعل، أي: أهل القرية قالوا، "ما" نافية، "أنتم" مبتدأ، "إلا" أداة حصر، "بشر" خبر. "مثلنا" نعت لبشر. "وما" نافية، "أنزل" فعل ماضٍ، "الرحمن" فاعل، "من" حرف جر زائد لاستغراق النفي، "شيء" مفعول به مجرور لفظاً منصوب محلاً. "إنّ" نافية بمعنى (ما)، "أنتم" مبتدأ، "إلا" حصر، "تكذبون" جملة فعلية خبر.

إشراقة بلاغية وسياقية: أسلوب القصر والحصر المكرر مرتين (ما أنتم إلا بشر) و(إن أنتم إلا تكذبون) يعكس التصلب والرفض القاطع، وفي استخدامهم لاسم "الرحمن" هنا تهكم أو محاولة للاحتجاج بأن الله برحمته الواسعة لا يضيق على البشر بالتكليف والرسول، أو هو نفي لأصل الوحي.

ينبه الأستاذ محمد قطب - رحمه الله - في كتابه دراسات قرآنية إلى هذه "الشبهة الأزلية" للبشرية المعاندة: (البشرية)، وهي عدم استيعاب أن يخص الله رجلاً من البشر بالوحي، وهو مرض الكبر النفسي الذي يجعل المنكر يقيس الرسول بذاته، فإذا كان مثله في الخلق، فكيف يتفوق عليه بالصلة بالسماء؟

* (قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ): "قالوا" (الرسول). "ربنا" مبتدأ، وجملة "يعلم" خبره. وجملة "إنا إليكم لمرسلون" سدت مسد مفعولي يعلم أو جرت مجرى القسم، "إنا" إنّ واسمها، "لمرسلون" اللام المزحلقة، ومرسلون خبر إنّ.

إشراقة بلاغية وسياقية: تأمل القفزة البلاغية في التأكيد؛ في قوله تعالى: (إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ) (مؤكد واحد: إن)، أما هنا لما جابهم القوم بإنكار أشد (إن أنتم إلا تكذبون)، رفعوا درجة التأكيد فاستشهدوا بعلم الله الذي يجري مجرى القسم، وزادوا اللام المزحلقة (ربنا يعلم + إن + اللام)، وهو ما يسمى في البلاغة "مراعاة مقتضى الحال".

يرى ابن القيم - رحمه الله - أنّ استشهاد الرسل بعلم ربهم هو أعلى مقامات الطمأنينة والثقة بالحق؛ إنهم يقولون: لا يضرنا تكذيبكم ولا يغير من الحقيقة شيئاً، طالما أن شهادة الخالق سبحانه قائمة ومعلنة.

* (وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ): الواو عاطفة، "ما" نافية، "علينا" جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. "إلا" أداة حصر. "البلاغ" مبتدأ مؤخر. "المبين" نعت للبلاغ.

إشراقة بلاغية وسياقية: أسلوب قصر إضافي يفيد تحديد المهمة بوضوح. ووصف البلاغ بـ "المبين" (أي الواضح الذي يبين الحق من الباطل بالحجة) يعني أنهم أدوا ما عليهم إبراء للذمة، وليس من وظيفتهم إجبار القلوب أو هداية التوفيق والإلهام، فهذه بيد الله سبحانه.

يشير ابن تيمية - رحمه الله - إلى قاعدة دعوية عظيمة مستنبطة من هذه الآية: الداعية ليس مسؤولاً عن النتائج ولا عن استجابة الناس، إنما مسؤوليته تنحصر في جودة البلاغ ووضوحه ووصوله ناصعاً عارياً من الغيش، فإذا فعل فقد برئت ذمته ويقع حسابهم على الله.

* (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ): قالوا "إننا" إن واسمها. "تطيرنا" فعل وفاعل والجملة خبر إن (التطير: التشاؤم). "بكم" متعلق بتطيرنا. "لئن" اللام موطنة للقسم، إن: شرطية. "لم" جازمة، "تنتهوا" مضارع مجزوم بحذف النون. "لنرجمنكم" اللام واقعة في جواب القسم، نرجمن: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل مستتر، وكم مفعول به. والجملة جواب القسم (وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب القسم). "وليمسنكم" عطف على لنرجمنكم وإعرابها مثله. "عذاب" فاعل، "أليم" نعت.

إشراقة بلاغية وسياقية: انتقل المكذبون من العناد الفكري إلى "الإرهاب الجسدي والنفسي" والتهديد الصريح (الرجم، العذاب الأليم). ونسبتهم الشؤم إلى الرسل (تطيرنا بكم) هي قلب للحقائق؛ فالشؤم في كفرهم هم، لكن الطغيان دائماً يتهم المصلحين بأنه سبب القلاقل والنكبات.

يحلل سيد قطب - رحمه الله - هذه الآية نفسياً واجتماعياً: "إنه ضيق العقل الطاعي بالكلمة الهادئة، وعجزه عن المواجهة بالفكرة، فيلجأ فوراً إلى القوة الغاشمة: الرجم والتعذيب، وهو منطوق كل الطغاة عبر التاريخ عندما تسقط حججهم".

* (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ۗ أَلَيْسَ لَكُمْ عِلْمٌ بِمَا يُرْسَلُ) "قالوا" أي: (الرسول). "طائركم" مبتدأ مرفوع، "معكم" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر. "أين" الهمزة للاستفهام الإنكاري والتوبيخي، إن: شرطية. والفعل الشرطي محذوف تقديره (أئن ذكرتكم كفرتم؟)، وجملة "دُكِّرْتُمْ" (فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله ونائب فاعل) هي جملة الشرط. "بَلْ" حرف إضراب إيطالي. "أنتم" مبتدأ، "قومٌ" خبر، "مسرّفون" نعت مرفوع بالواو.

إشراقة بلاغية وسياقية: الرد جاء حاسماً بليغاً وموجزاً؛ "طائركم معكم" أي سبب شؤمكم وهلاككم كامن فيكم وفي عقيدتكم وأفعالكم لا فينا. وجاء الإضراب بـ "بل" ليرد الأمر إلى أصله النفسي: "أنتم قوم مسرفون"؛ فالإسراف (مجازة الحد في المعاصي والكبر) هو العلة الحقيقية لرفضكم.

يوضح ابن القيم - رحمه الله - في (زاد المعاد) أنّ الرسول هنا قطعوا دابر الأوهام الجاهلية (التي تتطير بالطيور أو الأشخاص)، وأرجعوا "الطائر" (الحظ والقدر والجزاء) إلى عمل الإنسان نفسه؛ فكل إنسان طائره معه وهو عمله الصادر عنه.

* (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ): الواو استئنافية لعطف القصة أو المشهد الجديد. "جاء" فعل ماض. "من أقصى" متعلق بجاء، وهو مضاف و"المدينة" مضاف إليه، "رجلٌ" فاعل مؤخر (لتشويق السامع). "يسعى" جملة فعلية في محل رفع نعت لـ "رجل". "قال" استئناف بياني، وجملة "يا قوم اتبعوا المرسلين" مقول القول.

إشراقة بلاغية وسياقية: تقديم "من أقصى المدينة" على الفاعل "رجل" له سر بلاغي بديع؛ لإظهار مسافة البعد والمشقة التي تكبدها هذا الرجل (حبيب النجار كما في الأثر) من أجل إنقاذ قومه ونصرة الحق، ووصفه بـ "يسعى" يدل على السرعة والاهتمام والحرص والحيوية الروحية، وتنكيره "رجل" لتعظيمه بفعله لا بنسبه.

يقارن البقاعي وابن عاشور - رحمهما الله - بين لفظتي "القرية" في أول القصة و"المدينة" هنا؛ فالقرية تُطلق غالباً باعتبار تجمع البيوت، أما المدينة فتُطلق باعتبار اتساعها ونظامها؛ فلما ذُكر "الأقصى" (الطرف البعيد المتسع) ناسب لفظ "المدينة"، كما أنّ محمد قطب - رحمه الله - يستلهم من هذا "إيجابية الفرد"؛ فرغم أنه رجل واحد يعيش في أطراف المدينة، إلا أنه لم يقل "ما لي وللأمر"، بل تحرك بدافع عقيدته لإنقاذ الموقف.

* (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ): "اتبعوا" فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل (وهو تكرر للتوكيد اللفظي والاهتمام). "مَنْ" اسم موصول مفعول به. "لا" نافية، "يسألکم" فعل ومفعول به أول والفاعل مستتر، "أجرًا" مفعول به ثانٍ. "وهم مهتدون" الواو حالية، هم مهتدون: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال.

إشراقة بلاغية وسياقية: وضع هذا الرجل قاعدة عقلية منطقية عظيمة لقبول دعوة أي مصلح؛ وهي الجمع بين "التجرد المادي" (لا يسألکم أجرًا) و"الاستقامة الفكرية والسلوكية" (وهم مهتدون). فالنفس تنفر ممن يطلب مالاً أو جاهاً لدعوته، فإذا انتفى الطمع وثبت الهدى، وجب الاتباع عهداً وعقلاً.

يذكر ابن تيمية - رحمه الله - أن نفي طلب الأجر هو شعار الأنبياء والرسل وأتباعهم الصادقين؛ لأن إخلاص الدعوة لله يقتضي ألا يطلب الداعية ثمن هداية الناس من الناس، بل من رب الناس، وفي هذا أعظم ترغيب وتطمين للمدعوين.

* (وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ): الواو عاطفة أو استئنافية، "ما" اسم استفهام مبتدأ، "لي" جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر. "لا" نافية، "أعبدُ" فعل مضارع والفاعل مستتر تقديره أنا، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الياء في "لي". "الذي" اسم موصول مفعول به. "فطرني" فعل ومفعول به والفاعل مستتر (صلة الموصول). "وإليه" متعلق ب(ترجعون) المقدم لإفادة القصر والاهتمام، "ترجعون" فعل مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل.

إشراقة بلاغية وسياقية: هذا الأسلوب يسمى في البلاغة: التعريض اللطيف أو الإنصاف في الخطاب. لم يقل لهم مباشرة: "ما لكم لا تعبدون الله"، بل تكلم عن نفسه أولاً "وما لي لا أعبد" ليكون أدعى للقبول وأبعد عن إثارة حفيظتهم وكبريائهم، كأنه يزن الأمر على نفسه، ثم التفت التفاتاً بليغاً في نهاية الآية من التكلم إلى الخطاب فقال: (وإليه تُرْجَعُونَ) ليذكرهم بمسؤوليتهم ومصيرهم المحتوم، كما أن اختيار فعل "فطرني" (أي خلقتني على غير مثال سابق) يمثل الموجب العقلي للعبودية؛ فالذي أوجدك هو المستحق لعبادتك.

يلحق سيد قطب - رحمه الله - على هذه اللمسة الدعوية الرشيقة: "إنها المودة الفطرية، والمنطق الهادي الذي يأخذ القلوب هونا؛ فيبدأ بالحديث عن نفسه كأنما المشكلة مشكلته هو، وكأنه يمحص مذهب الخصوصي أمامهم، حتى إذا ساق الحجة القاطعة، ربط مصيرهم بها".

* (أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدُنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ): الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي. "أأخذ" فعل مضارع والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنا). "من دونه" متعلق بمحذوف حال أو باتخذ. "آلهة" مفعول به،

"إن" شرطية جازمة، "يردن" فعل الشرط مجزوم وعلامة جزمه السكون الظاهر على آخره، والنون للوقاية حرف مبني لا محل له من الإعراب، والكسرة للدلالة على الياء المحذوفة (يردني) ضمير مبني في محل نصب مفعول به مقدم. "الرحمن" فاعل. "بضر" جار ومجرور متعلق بـ"يردن". "لا" نافية، "تغن" جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة (الياء). "عني" متعلق بتغن. "شفاعتكم" فاعل تغن، "شيئاً" مفعول مطلق أو مفعول به ثانٍ. "ولا" عاطفة ونافية، "ينقدون" فعل مضارع مجزوم بالعطف على جواب الشرط بحذف النون، والياء (ينقدوني) المحذوفة لتناسب رأس الأبي في محل نصب مفعول به.

إشراقة بلاغية وسياقية: الاستفهام الإنكاري هنا يحمل معنى الاستحالة العقلية. وتكرار اسم "الرحمن" هنا في مقام الخوف والضر (إن يردن الرحمن بضر) يحمل طباقاً دقيقاً؛ فإذا أراد "الرحمن" -وهو واسع الرحمة- بعيداً ضراً، فمعنى ذلك أن هذا الضر هو محض العدل والحق، ولن تستطيع الآلهة المزعومة أن تدفع قضاءه أو تشفع عنده لانتفاء ملكها.

يبين ابن القيم - رحمه الله - شلل الأوهام الشركية في هذه الآية عبر أربعة مستويات من النفي: نفي نفع الآلهة بذاتها، ونفي نفع شفاعتها (لا تغن عني شفاعتكم)، وتقليل هذا النفع إلى العدم (شيئاً)، ونفي قدرتها على الإنقاذ المادي المباشر (ولا ينقدون). إنها تعرية مطلقة للباطل.

* (إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ): "إني" إنَّ واسمها. "إذا" حرف جواب وجزاء. "في" اللام المزحلقة تفيد التوكيد، "في ضلال" متعلق بمحذوف خبر إنَّ. "مبين" نعت لضلال.

إشراقة بلاغية وسياقية: جملة مؤكدة، وفيها "إذا" التي تدل على ترتب النتيجة على الشرط السابق؛ أي: إن اتخذت آلهة عاجزة لا تدفع ضراً، فإن النتيجة الحتمية العقلية هي الوقوع في ضلال مكشوف واضح لا خفاء فيه.

يشير البقاعي - رحمه الله - إلى أن هذا الحسم اللفظي يعكس شجاعة المؤمن؛ فهو لا يدهن في الحق، بل يضع النقاط على الحروف، واصفاً التراجع عن التوحيد بأنه انتحار معرفي وظلام مبين.

* (إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ): "إني" إنَّ واسمها. "آمنت" فعل وفاعل، والجملة خبر إنَّ. "بربكم" متعلق بآمنت. "فاسمعون" الفاء فصيحة أو عاطفة، اسمعون: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والنون للوقاية، والياء المحذوفة التي عوض عنها بالكسرة هي المفعول به (اسمعوني).

إشراقة بلاغية وسياقية: في قوله "بربكم" التفات دقيق؛ لم يقل "بربي"، بل قال بربكم ليذكرهم بأنه ربهم المستحق للعبادة أيضاً والمالك لأمرهم. وقوله "فاسمعون"

أمر يراد به الإشهاد؛ أي اشهدوا عليّ بكلمة التوحيد هذه، وهو قمة التحدي والإعلان الشجاع في وجه التهديد بالرجم.

يعيش سيد قطب - رحمه الله - مع هذا المشهد بوجدانه فيقول: "هنا تبلغ روعة الإيمان ذروتها؛ رجل منفرد، في بيئة معاداة، يرى مخايل الموت والوعيد، فيقذف بكلمة الإيمان حاسمة، مدوية، يرجّح بها المكان والزمان: (إني آمنت بربكم فاسمعون)!".

* (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالًا يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ).

"قيل" فعل ماض مبني لما لم يسم فاعله، وحُذِفَ الفاعل تعظيماً، لأن الأمر هو الله جلّ وتعالى، أو ملائكته المؤتمرون بأمره سبحانه. "ادخل" فعل أمر، والفاعل مستتر، والجملة مقول القول في محل رفع نائب فاعل، و"الجنة" مفعول به على السعة أو منصوب بنزع الخافض، "قال" استئناف بياني، "يا ليت" (يا): حرف ندا للخصيصة أو للتنبية، ليت: حرف تمن ونصب، "قومي" اسم ليت منصوب بالفتحة المقدرة. وجملة "يعلمون" خبر ليت، "بما" الباء حرف جر، "ما" مصدرية (أي بغفران ربي)، أو اسم موصول (بالذي غفره لي ربي)، "غفر" فعل ماض، "لي" متعلق بغفر، "ربي" فاعل. "وجعلني" عطف على غفر، والنون للوقاية والياء مفعول به أول، "من المكرمين" متعلق بمحذوف مفعول به ثانٍ لجعلني.

إشراقه بلاغية وسياقية: هذه من أروع مفاجآت القرآن البلاغية؛ النص أسقط مشهد القتل والرجم تماماً (حذف الفراغ الزمني والحديثي) وانتقل مباشرة بـ "الفجاءة الروحية" من صياح الأرض وتهديدها إلى سكينه الجنة وتكريمها (قيل ادخل الجنة). وفي قوله "يا ليت قومي يعلمون" بلاغة نفسية هائلة (تجريد وتسام)؛ فرغم أنهم قتلوه وعذبوه، إلا أنه لم يحمل غلاً ولا شماتة، بل تمنى لو يعلمون مصيره ليؤمنوا ويسعدوا بمثل ما سجد به.

يُعجب ابن عباس رضي الله عنه (ومن تبعه كابن عاشور) بهذا النقاء الروحي ويقول: "نصح قومه حياً وميتاً". ويضيف محمد قطب: "هذه هي الروح المخلصة الداعية؛ لا تنتقم لنفسها، ولا تتلذذ بهلاك معذبيها، بل تظل مشغولة بهدايتهم حتى وهي ترفل في نعيم الجنان".

* (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ): الواو استئنافية، "ما" نافية. "أنزلنا" فعل وفاعل. "على قومه" متعلق بأنزلنا. "من بعده" ظرف متعلق بمحذوف حال أو بأنزلنا، "من" حرف جر زائد لتأكيد النفي واستغراق الجنس، "جُنْدٍ" مفعول به مجرور لفظاً منصوب محلاً، "من السماء" نعت لجند. "وما" الواو عاطفة، ما: نافية. "كُنَّا" كان واسمها. "منزلين" خبر كنا منصوب بالياء.

إشراقة بلاغية وسياقية: الآية تحمل تحقيراً عظيماً لشأن هؤلاء الطغاة المكذبين؛ فإله سبحانه يقول إن أمر إهلاكهم أهون من أن نرسل لأجله جنداً من السماء (وما كنا منزلين)؛ لأنّ سنتنا لم تجر بإرسال ملائكة لإهلاك مثل هؤلاء، فهم أضعف وأحقر من ذلك.

يوضح ابن تيمية - رحمه الله - في هذا السياق أن الله سبحانه قد يهلك الطواغيت بأيسر الأسباب؛ فالجنود من السماء تُنزل أحياناً لنصرة الأنبياء وتثبيتهم (كما في بدر)، أما إهلاك المكذبين المستأصلين فيكفي فيه سبب كوني واحد من أسباب تدميرهم دون كلفة خلقية ظاهرة.

* (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ): "إن" نافية بمعنى (ما). "كانت" فعل ماض ناقص والتاء للتأنيث، واسم كان مستتر يعود على العقوبة أو الأخذة. "إلا" أداة حصر. "صيحة" خبر كان منصوب. "واحدة" نعت لصيحة. "فإذا" الفاء عاطفة تفيد المفاجأة، إذا: الفجائية. "هم" مبتدأ، "خامدون" خبر مرفوع بالواو.

إشراقة بلاغية وسياقية: البلاغة الإيجازية هنا في أوجها؛ فالاستثناء والحصر (إن كانت إلا صيحة) يوضح السرعة والسهولة، والالتيان بـ "إذا الفجائية" مع الوصف بـ "خامدون" (مستعار من خمود النار إذا انطفأت وذهبت حركتها وحرارتها فصارت رماداً هامداً) يصور الحركة والحياة الباذخة التي انقلبت في لمح البصر إلى سكون تام وموت مطبق؛ صيحة واحدة أطفأت حركتهم وصخبهم كلياً.

يكتب سيد قطب - رحمه الله - بأسلوبه التصويري: "صيحة واحدة.. وينتهي كل شيء. يخدم الصخب، وتجف الحركة، ويسكن الوجود.. كأنهم نار متقدة متكبرة، صيح عليها صيحة واحدة فإذا هي رماد هامد بارد لا حراك فيه".

* (يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ): "يا" للنداء (أو للتنبيه وتفجيع الموقف). "حسرة" منادى شبيه بالمضاف منصوب، والتحسر هنا قائم بمشهد العباد (أو هو نداء للحسرة ذاتها كأنما قيل لها: احضري فهذا أوانك). "على العباد" متعلق بحسرة. "ما" نافية. "يأتيهم" فعل ومفعول به. "من" حرف جر زائد لتأكيد الاستعراق، "رسول" فاعل مجرور لفظاً مرفوع محلاً. "إلا" أداة حصر. "كانوا" كان والواو اسمها، وجملة "به يستهزئون" خبرها، والجملة في محل نصب حال من العباد أو استئناف بياني للتحسر.

إشراقة بلاغية وسياقية: الالتفات إلى النداء والتحسر (يا حسرة) يبرز فظاعة الجرم البشري المتكرر، والعباد هنا هم المكذبون؛ وجاء وصفهم بـ "العباد" تعريضاً بضعفهم وافتقارهم الذاتي ومملوكيتهم لله، فكيف يجترئ المملوك الضعيف على الاستهزاء برسول الملك العظيم؟

يرى ابن القيم - رحمه الله - أنّ هذه الآية تكشف طبيعة النفس الجاهلية التي لا تكفي بالرفض، بل تبثلي بمرض "الاستهزاء" كحيلة دفاعية نفسية لتغطية عجزها أمام قوة الحق الصادع، فتكون النتيجة هي الحسرة الأبدية حين لا تنفع السلوى.

* (أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ): الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي، "لم" جازمة، "يروا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل. "كم" خبرية تكثيرية في محل نصب مفعول به مقدم لـ "أهلكنا" (أو معلقة لعمل يروا). "أهلكنا" فعل وفاعل. "قبلهم" ظرف. "من القرون" بيان لكم. "أنهم" أن واسمها، "إليهم" لا يرجعون" جار ومجرور ونفي ومضارع خبر أن، والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها بدل من "كم أهلكنا" أو تعليل للإهلاك (بمعنى: ألم يروا كثرة إهلاكنا للقرون ومصيرهم المؤكد بأنهم لا يعودون للعالم).

إشراقة بلاغية وسياقية: الاستفهام لقرع قلوب المشركين المعاصرين للتنزيل (مكة وما حولها) بذكر سنن التاريخ، ونفي الرجوع (أنهم إليهم لا يرجعون) يقطع أوهام التكذيب بالبعث أو إمكانية تدارك ما فات؛ فمن يموت مستأصلاً بالعذاب ينتهي أثره الدنيوي تماماً تمهيداً للمحكمة الكبرى.

يذكر ابن عاشور - رحمه الله - أنّ الغرض من هذه الآية هو إيقاظ الغافلين عن مصائر الأمم السابقة؛ فالسير في الأرض أو النظر في أخبار التاريخ يجب أن يثمر وعياً سننياً، لا مجرد فرجة عابرة، لأن السنّة الإلهية لا تحابي أحداً.

* (وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ): الواو استئنافية، "إن" نافية بمعنى (ما) [أو مخففة من الثقيلة]. "كل" مبتدأ مرفوع بالضمّة (والتنوين عوض عن مضاف إليه أي: وكلهم). "لما" بمعنى (إلا) أداة حصر [أو اللام هي الفارقة وما زائدة]. "جميع" خبر أول للمبتدأ "كل" مرفوع، "لدينا" ظرف مكان متعلق ب(محضرون). "محضرون" خبر ثانٍ أو نعت لجميع مرفوع بالواو. (والمعنى الإجمالي على النفي والحصر: وما كلهم إلا مجموعون ومحضرون عندنا).

إشراقة بلاغية وسياقية: الختام هنا حاسم ومطبق؛ فإذا كان هلاكهم في الدنيا قد عزلهم وقطع رجوعهم إليكم، فإن مصيرهم الكوني النهائي هو الإحضار القسري بين يدي الله (لدينا محضرون)، واختيار اسم المفعول "محضرون" بالصيغة المبنية لما لم يسم فاعله يفيد الغلبة والقهر؛ أي سيُساقون سوقاً رغماً عن كبيرهم وعنادهم السابق.

يربط البقاعي - رحمه الله - هذه الخاتمة بالمقصد السوري الشامل؛ فالسورة بدأت بالشهادة للرسالة، وثنت بذكر الرقابة الإلهية وكتابة الآثار (ونكتب ما قدموا وآثارهم)، وهنا تؤكد النتيجة الكبرى لهذا العرض: الحساب الشامل والدقيق حيث

يُجمع الأولون والآخرون في صعيد واحد، محضرين بذواتهم وأعمالهم دون فوات أحد.

* (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) وَآيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ (41) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (42) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقذُونَ (43) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (44) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (45) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (46) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطعمه إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (47) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (48) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50)

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة يس تمثل قلب السورة النابض، وهي ركيزة المحاجة الكونية والوجودية ضد المكذبين، أليسوا يطلبون الآيات ويلحون في طلبها؟ ها هو الكون مليء بما يطلبون لو كانوا يعقلون.

المقطع الأول: آيات الأرض والإنبات: * (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ).

السياق والمقصد العام: لما ذكرت الآيات السابقة هلاك القرية المكذبة، وكان هلاكها آية من آيات الله، وذكر مصير البشرية المحتوم للبعث والنشور (وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ)، أقام الله هنا الحجة والبرهان المشهود على إمكانية البعث بإحياء الأرض الميتة.

* (وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ): "آية" خبر مقدم، و"الأرض" مبتدأ مؤخر. وتقديم الخبر للاهتمام والتشويق؛ فمحط الإنكار والتعجب هو "الآية" وعمى بصيرتهم عنها.

وصف الأرض بـ المَيْتَةُ بالتخفيف كما هي قراءة جمهور القراء، أو التشديد بقراءة نافع وأبي جعفر للدلالة على السكون التام والعدم الخالي من الحياة، ليتناسب مع مشهد الموت الإنساني.

اشراقات ولطائف بلاغية: الالتفات: انتقل السياق من الغيبة (وآية لهم) إلى قوله: (أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا) بنون العظمة، للتنبيه على عظم الخالق وقدرته المباشرة، ثم عاد للغيبة في (فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ).

القصر والاختصاص: تقديم الجار والمجرور في (فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)، أصلها: يأكلون منه، يفيد الحصر والاهتمام، أي أن هذا الحب هو عماد حياتهم وقوتهم الأساسي الذي لا غنى لهم عنه.

يرى البقاعي في (نظم الدرر): أن هذه الآية ملتحمة تمامًا بآية المحشر السابقة؛ فد "الآية" هي العلامة الظاهرة المعينة على العلم بما خفي، فكما أنكم ترون الأرض تحيا بعد موتها، فكذلك الأجساد.

أما سيد قطب (في ظلال القرآن): فيبرز الحركة والتدبر الكوني، فالنص يعرض مشهدًا حيًا ومتحركًا، تنبض به الأرض الميتة فجأة بالخضرة والنعماء والرزق.

* (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)، السياق والمقصد: تدرج في النعمة والامتنان؛ فبعد ذكر "الحب" الذي هو للقوت والضرورة، تثنى بذكر "الجنات والعيون" وهي للفاكهة، والتنعم، والجمال.

(جَنَّاتٍ): جمع جنة، وجاءت نكرة للتعظيم والتكثير، (وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ): التعبير بالتفجير (فَجَّرْنَا) على وزن (فَعَّل) يفيد الكثرة والمبالغة والقوة في تدفق المياه، وَمِنَ اللَّتْبَعِيضِ أَوْ لِبَيَانِ الْجِنْسِ.

اللطائف البلاغية: تخصيص (نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ) بالذكر لأنهما أشرف أشجار العرب وأعلاها نفعًا وقوتًا وفاكهة.

وقد استفاد الصحابة رضوان الله عليهم من كتاب ربهم جل وتعالى، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ[1].

التناسب الفاصل اللفظي بين الآيات يضيف إيقاعًا هادئًا يناسب جمال الحقائق والعيون.

(1) – أخرجه البخاري (127) بَابُ مَنْ حَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةً أَنْ لَا يَفْهَمُوا، وأخرجه البيهقي في ((المدخل إلى السنن)) (610)، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم)) (1911)، والخطيب البغدادي في ((الجامع لأخلاق الراوي)) (1318) بنحوه.

يتأمل ابن القيم - رحمه الله - في (مفتاح دار السعادة): بديع صنع الله بكيفية خروج الماء العذب الصافي من بين الصخور والتراب، وكيف تتغذى به هذه الأشجار المتباينة الطعوم والأشكال والصفات مع أن السقي واحد.

أمّا ابن عاشور - رحمه الله - (التحرير والتنوير) فيشير إلى أن إعادة الجار والمجرور في الجملة الثانية (وَفَجَّرْنَا فِيهَا) لربط نعمة الماء بنعمة الثمر ربطاً وثيقاً، ولتأكيد استيعاب تفجير العيون لأرجاء الأرض.

* (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)، [مَا] فِي قَوْلِهِ: "وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ"، ل(ما) إعرابان، يختلف بهما المعنى، ولا تعارض:

(مَا) نَافِيَةٌ	(مَا) مَوْصُولَةٌ
أَيُّ: لَمْ تَعْمَلْهُ أَيْدِيهِمْ، بَلْ هُوَ مَحْضٌ خَلَقَ اللَّهُ	أَيُّ: وَمَا صَنَعُوهُ مِنْ عَصِيرٍ وَدَبْسٍ وَزَّرَاعَةٍ وَغَيْرِهِ

ثم نصل إلى الآيات التي تمثل قلب السورة النابض، وتنتقل بالنفس البشرية من آيات الأفاق والكون المشهود، إلى آيات التاريخ البشري والنعمة، وصولاً إلى تصوير اللحظة الخاطفة التي تنتهي بها الحياة الدنيا ويبدأ بها الوعيد الإلهي.

* (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)

تأتي هذه الآية كخاتمة باهرة لقصة الأرض الميتة التي أحيها الله في الآيات السابقة، وافتتاحية لآيات الفلك العلوي. الرابط هنا هو "الزوجية" كقانون عام للحياة والنماء.

(سُبْحَانَ): مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (أُسْبِحْ)، وجاء مصدرًا ليدل على مطلق التنزيه الدائم الذي لا يتقيد بزمن، وقوله (كُلَّهَا): توكيد معنوي منصوب للأزواج، يفيد الشمول والإحاطة النحوية لكسر أي استثناء.

إشراقة بلاغية: الطباق الخفي والمقابلة بين المعلوم والمجهول: (مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ)، معلوم ومشهود مقابل (وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ)، غيب مجهول.

كما أنّ التكرير والإبهام في (مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) يفيد التهويل والتعظيم، وهو ما يفسره العلم الحديث يوماً بعد يوم من قوانين المادة والطاقة الدقيقة.

المقاصد والتدبر: المقصد هو توحيد الخالق؛ فالزوجية تقتضي النقص والحاجة إلى الآخر ليتكامل الوجود، والوحيد الذي لا زوج له هو الله، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وهو السميع البصير [الشورى:11]، يشير ابن القيم - رحمه الله - إلى أنّ اقتران الأضداد والمشابهاة في الكون دليل على حكمة القيومية.

* (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ)، السياق والنظم: التفات من آيات الأرض إلى آيات السماء والزمان؛ فالليل والنهار هما ظرف الزمان لنمو تلك النباتات وحركة تلك الأنفس.

(وَآيَةٌ): خبر مقدم مرفوع. (اللَّيْلُ): مبتدأ مؤخر. تقديم الخبر هنا للاهتمام والتشويق. جملة (نَسْلَخُ): في محل نصب حال من الليل أو صفة له. (فَإِذَا): هي "إذا" الفجائية التي تفيد سرعة حدوث الظلمة بمجرد نزع الضوء.

إشراقه بلاغية: قوله تعالى: (نَسْلَخُ): عند علماء البلاغة هذه استعارة مكنية بدعية، إذ أنّ لفظ السلخ في الأصل هو كشط الجلد عن الشاة. استعير هنا لإزالة ضوء النهار عن مكان الليل الصافي. وفي هذا إشارة إلى أنّ الأصل في الكون هو الظلمة، والنهار قشرة رقيقة عارضة عليه، وهي لفظة علمية بليغة جداً أشار إليها سيد قطب - رحمه الله (في ظلال القرآن).

المقاصد والتدبير: تهدف الآية إلى إيقاظ الحس البشري البليد تجاه المعجزات اليومية المتكررة، فالسلخ حركة حثيثة متداخلة تشهد بطلاقة القدرة والتدبير الإلهي الدقيق.

* (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ): الواو عاطفة، (الشَّمْسُ): مبتدأ مرفوع، وجملة تَجْرِي خبره. ويجوز نحواً أن تكون منصوبة بفعل محذوف يفسره ما بعده - مثل (والقمر) في الآية بعدها - إلا أنّ تقدير القراءة الحالية بالرفع أقوى في الدلالة على الثبوت والدوام، واللام في لِمُسْتَقَرٍّ: إما بمعنى (إلى) الغائية، أو (في) الظرفية.

إشراقه بلاغية: صيغة المبالغة وبلاغة الصفات: ختم الآية باسمي (العَزِيزِ الْعَلِيمِ)؛ لأن جريان الشمس وضخامتها يحتاج إلى "عزة" وقهر للامساك بمدارها، ودقة حركتها تحتاج إلى "علم" محيط لا يختل.

المقاصد والتدبير: يرى ابن تيمية - رحمه الله - أنّ "المستقر" قد يكون مكانياً (تحت العرش أو نهاية مدارها الفلكي) أو زمانياً (يوم القيامة حيث تكور). ويذكر ابن عاشور أنّ التعبير بـ "تجري" يوافق ما يراه البشر بأعينهم من حركة، وفي نفس الوقت يطابق الحقيقة العلمية بسباحة الشمس في الفضاء المفتوح مع مجموعتها.

* (وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ): (وَالْقَمَرَ): الواو عاطفة، (القمر) مفعول به منصوب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره ما بعده (وقدرنا القمر قدرناه). مَنَازِلَ: حال محذوفة تقديرها (ذا منازل)، أو مفعول به ثانٍ للفعل (قدرنا) بتضمينه معنى (صيرنا). حَتَّىٰ: غائية لانتهاء المراحل.

إشراقه بلاغية: التشبيه التمثيلي البديع: (كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ)؛ والعرجون هو غصن النخلة الذي يحمل الثمر إذا يبس وانحنى واصفر. التشبيه هنا يجمع بين: (الانحناء، الرقة، الصغر، واللون المائل للصفرة). اختيار "القديم" وصف دقيق للمرحلة الأخيرة للمحاق حيث يتلاشى الضوء تماماً ويدق الجرم.

المقاصد والتدبير: القمر قريب من الوجدان البشري، والآية تحوله من مجرد جرم صامت إلى معلم زمني وتشريعي في قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبُ النَّاسِ) [البقرة:189]، إنها تربية تربط القلب بانتظام الكون وتغير أحواله من القوة إلى الضعف (الولادة كالمنجل ثم البدر ثم العودة كالعرجون).

* (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)

(لَا الشَّمْسُ): (لا) نافية مهملة لدخولها على معرفة. (أَنْ تُدْرِكَ): المصدر المؤول في محل رفع فاعل للفعل (يَنْبَغِي)، (وَكُلٌّ): التنوين هنا تنوين عوض عن كلمة، أي: (وكُلُّهم أو كُكُلٌ كوكب). وجاء الفعل (يَسْبَحُونَ) بواو الجماعة الخاصة بالعقلاء؛ تنزيلاً لها منزلة العقلاء لحسن انقيادها لأمر الله وجريانها المنظم.

إشراقه بلاغية: التدبيح والطباق الدوري: نفى "الإدراك" ونفى "السبق" ليدل على إتقان هندسة الكون؛ فالشمس لها سلطان (النهار) والقمر له سلطان (الليل)، والمسارات متوازية لا تصادم فيها.

كما أنّ الجناس المعنوي واللفظي الرائع في جملة (كُلٌّ فِي فَلَكٍ): هذه الجملة تقرأ طرداً وعكساً (من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين بنفس الحروف "ك ل ف ي ف ل ك")، وهو ما يسمى في البلاغة بـ (ما لا يستحيل بالانعكاس)، وهو يطابق تماماً الحركة الدائرية للفلك! سبحان الله.

المقاصد والتدبير: المقصد إثبات التوحيد عبر نفى الفوضى عن الكون. الكون محكوم بنظام صارم لا يتقدم فيه ليل على نهار، ولا يطغى فيه كوكب على مدار الآخر.

* (وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا دُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ)

السياق والنظم: بعد أن ذكر الفلك العلوي (مساح الكواكب والنجوم)، انتقل مباشرة وببراعة نظمية إلى "الفلك السفلي" (السفن في البحار). الرابط هو "السباحة والاتساق والامسك الإلهي".

المصدر المؤول من (أَنَا حَمَلْنَا): في محل رفع مبتدأ مؤخر، (أو بدل من آية).
(مِنْ مِثْلِهِ): الجار والمجرور متعلق بـ (خَلَقْنَا)، (إِلَّا رَحْمَةً): مستثنى منصوب، أو
مفعول لأجله (أي: ما ننجيهم إلا لأجل رحمتنا لهم).

إشاعة بلاغية: الإيجاز والتعميم بالقرينة: (وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ)؛
تشمل الإبل (سفن الصحراء) وتتمدد عبر العصور لتشمل الطائرات والقطارات
والمركبات الحديثة؛ فالقرينة هي "المماثلة في حمل الأثقال والسير".

الالتفات الكنائي البليغ في لفظ (فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ): نفي الصريح (وهو المستغيث
أو المغيث) أبلغ من نفي مجرد السماع، أي لا يوجد حتى من يصيح مغيثاً لهم إن
حقت عليهم كلمة الغرق.

المقاصد والتدبر: يُبرز سيد قطب - رحمه الله - هنا حقيقة "الاستخلاف
والأمن". فالإنسان يركب البحر الخضم على خشبة أو حديدة، والضامن الوحيد لعدم
غرقها هو القوانين الفيزيائية (الطفو) التي أودعها الله في الماء. فإذا شاء الله عطلها
أو أرسل الرياح العاصف. النجاة هي "رحمة ومتاع مؤقت" وليست حصانة دائمة من
الموت.

* (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ
آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

السياق والنظم: بعد عرض كل هذه الآيات (الأرض، الفلك العلوي، الفلك
البحري)، يلتفت السياق لبيان الموقف النفسي العجيب للمشركين؛ حيث واجهوا كل
هذه الآيات، أليسوا يطلبون ويلحون في طلب الآيات؟ فهذا الهدى يواجهونه بالإعراض
والتعنت.

* (وَإِذَا قِيلَ): حذف فاعل "قيل" للعلم به أو للتعميم (سواء قاله الرسول أو
المؤمنون أو ناصح). جواب "إذا" محذوف دل عليه السياق تقديره: (أعرضوا
وعاندوا)، وجاءت الآية بعدها لتسد مسد الجواب ببيان صفتهم المستمرة الدائمة {إِلَّا
كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}.

إشراقة بلاغية: المقابلة والمجاز: (مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ) والجواب محذوف
تقديره: أعرضوا عنه، ودليله ما بعده؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ما بين أيديكم من
ذنوب الدنيا، وما خلفكم من عذاب الآخرة، وقيل: ما مضى من العذاب للأمم السابقة
وما يستقبلكم، التعبير يحيط بالجهات ليفيد وجوب التقوى الشاملة.

صيغة الحصر: (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)
يفيد تمكن صفة الجحود والإعراض من نفوسهم كأنها جبلّة ثابتة.

المقاصد والتدبر: تشريح للنفس الجاحدة التي أغلق التعصب منافذ وعيها، الآيات – التي يطلبونها بإلحاح- تحيط بهم من كل جانب، لكن العلة ليست في وضوح الآية، بل في "عمى القابلية" للإيمان والتدبر لديهم.

* (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

(قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا): أظهر في موضع الإضمار (لم يقل قالوا لهم) لتسجيل صفة "الكفر" عليهم وصفة "الإيمان" لخصومهم تثبيتاً للمفصلة، (إِنْ أَنْتُمْ): (إِنْ) هنا نافية بمعنى (ما)، أي: ما أنتم إلا في ضلال.

قال البغوي – رحمه الله – وذلك أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا لِكُفَّارٍ مَكَّةَ: أَنْفِقُوا عَلَيَّ الْمَسَاكِينَ مِمَّا رَزَعْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَنَّهُ لِلَّهِ، وَهُوَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ حُرُوثِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، قَالُوا: أَنْطَعِمُ، أَنْزَرُقُ، مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ، أَي: رَزَقَهُ، ثُمَّ لَمْ يَزْرُقْهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، فَحُنُّ نُوَافِقُ مَشِيئَةَ اللَّهِ فَلَا نُطْعِمُ مَنْ لَمْ يُطْعَمْهُ اللَّهُ، وَهَذَا مِمَّا يَتَمَسَّكُ بِهِ الْبُخْلَاءُ، يَقُولُونَ: لَا نُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ اللَّهُ، وَهَذَا الَّذِي يَزْعُمُونَ بَاطِلٌ، لِأَنَّ اللَّهَ أَغْنَى بَعْضَ الْخَلْقِ وَأَفْقَرَ بَعْضَهُمْ ابْتِلَاءً، فَمَنْعَ الدُّنْيَا مِنَ الْفَقِيرِ لَا بُحْلًا وَأَمَرَ الْعَنِيِّ بِالْإِنْفَاقِ لَا حَاجَةَ إِلَى مَالِهِ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ الْغَنِيَّ بِالْفَقِيرِ فِيمَا أَمَرَ وَفَرَضَ لَهُ فِي مَالِ الْعَنِيِّ، وَلَا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ فِي خَلْقِهِ^[1].

إشراقه بلاغية: المغالطة المنطقية والجدل الفاسد (الفلسفة الشيطانية): (أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)؛ استعملوا حقيقة قدرة الله ومشيبته (كلمة حق) ليعطلوا بها أمره بالإنفاق (ليصلوا لباطل). هذا هو القياس الفاسد الذي يحتج بالقدر على حساب الشرع.

التهكم والوقاحة: ردهم الجواب للمؤمنين ورميهم بالضلال المبين قمة التبجح وقلب الحقائق.

المقاصد والتدبر: يشير ابن تيمية – رحمه الله – إلى أن الكفار لم يفهموا حكمة الابتلاء؛ فالله أغنى بعضاً وأفقر بعضاً ليختبر الشاكر والمنفق والمواسي، والمال مال الله والاستخلاف فيه امتحان. ويذكر ابن عاشور – رحمه الله – أن هذه الآية تكشف شح النفوس الكافرة وتسترها خلف مبررات غيبية واهية.

* (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)

(1) – انظر مختصر تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص998).

السياق والنظم: انتقل الكفار من التكذيب بالآيات المشهودة والأوامر الشرعية (النفقة) إلى استعجال الوعد (القيامة/ العذاب) على سبيل التهكم، فجاء الرد خاطفاً وحاسماً.

(مَتَى): اسم استفهام مبني في محل رفع خبر مقدم. (هَذَا): مبتدأ مؤخر. (مَا يَنْظُرُونَ): (ما) نافية، وينظرون هنا بمعنى "ينتظرون". (صِيحَةً وَاحِدَةً) قال ابن عباس رضي الله عنهما: النفخة الأولى: مفعول به. (وَهُمْ يَخْصِمُونَ): أصلها يختصمون، أدغمت التاء في الصاد ونقلت حركتها للخاص، والجملة الاسمية في محل نصب حال، وتدل على المباغثة (تأخذهم وهم في قمة انشغالهم بخصومات الدنيا وتجارتهم).

إشراقة بلاغية: المباغثة التصويرية والسرعة الفائقة: (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ)؛ نفى أهون السلوكيات وأسرعها (الوصية باللسان) ونفى المقدره على الحركة الفيزيائية (الرجوع للأهل). هذا إيجاز رائع يصور الشلل التام الذي يحدثه هول الصيحة المفاجئة.

المقاصد والتدبير: يرسم سيد قطب - رحمه الله - هنا مشهداً حركياً رائعاً؛ الناس في الأسواق، يتنازعون، يبيعون ويشتررون، يختصمون في شؤون الأرض الفانية.. وفجأة! وبدون مقدمات، تصعقهم "صيحة واحدة" تقطع حبال الصوت في الحناجر، وتجمد الحركة في الأطراف. تنتهي الدنيا بغتة، وينهار غرور المستعجلين في لمحة عين.

خلاصة: هذا النص القرآني المتكامل يأخذ العقل البشري في رحلة فلكية ومجتمعية وإيمانية، ليبين أن الكون كله منقاد خاشع مسبح في فلكه، بينما الإنسان الجاحد هو النشاز الوحيد في هذا الوجود؛ يُعرض عن الآيات، ويشخّ بالمال، ويستعجل العذاب، حتى تأخذه الصيحة وهو غافل لاهٍ.

* (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (53) فَالْيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (54) إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (57) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ (58) وَامْتَارُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (59) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۗ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (60) وَأَنْ اعْبُدُونِي ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۗ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (63) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (64) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا

الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (66) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَبْطَءُوا مَظِيلًا وَلَا يَرْجِعُونَ (67) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (68)

هذه الآيات في هذا الدرس قبل الأخير من سورة يس تمثل مشهداً حياً، متحركاً، ومزلزلاً من مشاهد يوم القيامة، ينتقل فيه السياق من حركة البعث والنشور إلى مآلات الخلق بين النعيم المقيم والعذاب الأليم، ثم يردد بالبشرية إلى واقعها الدنيوي للتذكير بسنن الله في الخلق.

* (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ): بُني الفعل (نُفِخَ) لما لم يُسَمَّ فاعله، لتعظيم الحدث؛ فالنافخ معلوم وهو إسرافيل عليه السلام بأمر ربه، ولكن التركيز هنا على دهم المفاجأة والحدث نفسه.

(فَإِذَا) هي "إذا" الفجائية، التي تفيد المفاجأة والسرعة التامة الخاطفة بين النفخة وخروجهم.

(يَنسِلُونَ): النَّسْلَانُ هو المشي السريع الحثيث (كمشي الذئب) وفيه إشارة لسرعة الحركة دون إرادة منهم، وتقديم الجار والمجرور (إِلَىٰ رَبِّهِمْ) يفيد الاختصاص، أي: لا مفر ولا ملجأ لأحد اليوم إلا إلى الله.

إشراقة بلاغية: المشهد هنا تصوير حركي عجيب؛ الأجداث (القبور) تنشق فجأة، والخلائق تخرج سراعاً كأنهم يهرولون لنداء لا يمكن التخلف عنه، وهو ما يسميه سيد قطب - رحمه الله - "التصوير الفني في القرآن" حيث يتحول النص إلى مشهد مرئي نابض بالحركة.

المقاصدي: إثبات البعث الحسي والسرعة الإلهية في إعادة الخلق، والرد على منكري البعث الذين ذكرتهم الآيات السابقة في قوله: (مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ).

* (قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ):

(يَا وَيْلَنَا): نداء للويل (الهلاك) كأنه شخص يحضر، وهو أسلوب يفيد الحسرة والندم الطاعي.

(مَّرْقَدِنَا): اسم مكان من الرقاد، واستعارتها هنا للقبر لطيفة جداً؛ فالكفار لهول ما رأوا من عذاب القيامة، اعتبروا عذاب القبر الشديد قبلها كان مجرد "رقاد" ونوم!

الجملة الثانية: (هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ...) في محل نصب مقول القول، ويرى ابن عاشور - رحمه الله - والجمهور أنها كلام المؤمنين يردون عليهم، أو هي كلام الكفار أنفسهم اعترفوا بالحق حين لا ينفع الاعتراف.

إشراقة بلاغية: المقابلة الدقيقة بين اسمتين: اختاروا وصف (الرَّحْمَنُ) هنا إلزاماً للحجة عليهم؛ لأنهم كفروا برحمة الله وبآياته في الدنيا، فظهر وعيده الذي هو حق. وفي قوله (وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) طباق مع تكذيبهم لهم في الدنيا.

المقاصدي: تصوير لحظة الصدمة الكبرى والاعتراف القهري بالحقيقة، وسقوط كل فلسفات الإنكار المادية أمام العيان.

* (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ): (إن) نافية بمعنى (ما)، و(إلا) أداة حصر. و(صَيْحَةً) خبر كان، أما اسمها فمحذوف تقديره (هي، أو الفعلة)، (أي: إن كانت الفعلة أو النفخة إلا صيحة واحدة).

(مُحْضَرُونَ): اسم مفعول يفيد القهر؛ لم يأتوا باختيارهم، بل "أحضروا" قسراً وتكويناً.

إشراقة بلاغية: تأكيد السرعة بـ (وَاحِدَةً)، فلا حاجة لتكرار الصيحة، وبـ (فَإِذَا) الفجائية مرة أخرى. والتعبير بـ (جَمِيعٌ... مُحْضَرُونَ) يجمع بين الشمول والإحاطة؛ فلا يغيب منهم أحد من الأولين والآخرين.

المقاصدي: بيان طلاقة القدرة الإلهية، فأعادة جميع بلايين البشر لا تحتاج إلا لصيحة واحدة خفيفة وسريعة، تنتهي معها رحلة الموت وتبدأ رحلة الحساب.

* (فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ): الفاء عاطفة تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها (فبما أنهم أحضروا للحساب، فالنتيجة هي العدل المطلق).

(نَفْسٌ) جاءت نكرة في سياق النفي لتفيد العموم الشامل (أي نفس، مؤمنة أو كافرة، شريفة أو وضيعة)، (شَيْئًا) مفعول مطلق أو ثانٍ يفيد القلة، أي: ولا أدنى ظلم.

إشراقة بلاغية: الالتفات من الغيبة في قوله (فَإِذَا هُمْ) إلى الخطاب المباشر القاسي للكفار والمقسط للمؤمنين (وَلَا تُجْزَوْنَ)، وهو التفات لزيادة التوبيخ للمجرمين والقرع لقلوبهم.

المقاصدي: تأسيس قاعدة العدل الإلهي المطلق؛ حيث يربط الله الجزاء بالعمل الصرف وعين ما قدمت الأيدي، وهو ما يركز عليه ابن تيمية - رحمه الله - كثيراً في دفع توهم الظلم عن أفعال الله وجزائه.

* (إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِنُونَ، هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ، سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ): (في شُغْلٍ): تنكير "شغل" يفيد التعظيم، وهو شغل النعيم والالتذاذ الذي يلهي عن كل كدر وهم.

(فَأَكْهُونَ): جمع فَاكِهِ، وهو الناعم المزاح المتلذذ بالفاكهة أو بالحديث الطيب،
(عَلَى الْأَرَائِكِ): الأريكة هي السرير في الحجلة (مكان العروس)، ولا تسمى أريكة
إلا إذا كانت مزينة، وتتكير (ظلالٍ) للتعظيم والرفاهية.
(وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ): "يَدْعُونَ" هنا من الدعاء والطلب، أي: كل ما يتمنونه
ويطلبونه يحضر فوراً بمجرد الرغبة فيه.

إشاعة بلاغية: المقابلة البديعة؛ فبينما الكفار يعيشون رعب المحضر والحساب،
يلتفت السياق فوراً لتصوير نعيم أصحاب الجنة لتأكيد التمايز، والتعبير بـ (هُمُ
وَأَزْوَاجُهُمْ) يوحي بالأنس والاستقرار النفسي والاجتماعي الكامل.

المقاصدي: بيان ثواب الطاعة، وتطمين النفس المؤمنة بأن هذا الموقف
العصيب سينتهي بها إلى استقرار مطلق ونعيم حسي ونفسي لا ينقطع.

* (سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ): (سَلَامٌ): مبتدأ مرفوع، والخبر محذوف (أي:
سلامٌ عليهم)، وجاءت النكرة للتفخيم والسلامة من كل نقص.

(قَوْلًا): مفعول مطلق مؤكد لفعل محذوف تقديره (يقولون قولاً)، أو (يقوله الله
قولاً).

الجار والمجرور (مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ) نعت لسلام، لبيان مصدر هذا السلام العظيم.

إشراقة بلاغية: هذا هو أوج النعيم الإلهي، النعيم المعنوي الروحي الذي ينسي أهل
الجنة كل نعيم مادي. التعبير بالرب الرحيم يجمع بين الملك والتربية والرحمة الغامرة،
وفي هذا إشارة لطيفة إلى رعاية الله لهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ
الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَعُ فِي النَّارِ صَبْعَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ
حَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي
الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَعُ صَبْعَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا
قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً
قَطُّ " [1].

المقاصدي: غاية ما يطمح إليه المؤمن؛ لقا الله ونيل رضوانه وأمانه المطلق،
وهو المعنى الذي يسيل به مداد ابن القيم - رحمه الله - في "حادي الأرواح" عند
وصف لذة الرؤية والسماع من الرب جل جلاله.

(1) - أخرجه مسلم (2807)

* (وَأَمَّا زُورًا وَالْيَوْمَ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ): (وَأَمَّا زُورًا): فعل أمر من "تميز"، أي انفصلوا وتفرقوا عن صفوف المؤمنين.

(أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ): نداء فيه غاية التقريع والتحقير والتعريف بصفاتهم الجرمية التي أهلكتهم.

إشراقة بلاغية: استعارة ومجاز بديع؛ الأمر هنا ليس للتكليف بل هو أمر تكويني أهينوا به، حيث ينقطع الاختلاط الذي كان في الدنيا بين البر والفاجر، فيتميز الخبيث من الطيب بفرز كوني رهيب ومخيف. كما يذكر البقاعي - رحمه الله - في (نظم الدرر)، هذا طرد من رحاب الكرامة.

المقاصدي: إعلان المفاصلة التامة والأبدية بين الحق والباطل، والعدل الذي يفتنزي ألا يساوى المجرم بالمسلم.

* (لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ، أَنْ اِعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ): الاستفهام في (لَمْ أَعْهَدْ) للتوبيخ والتقرير. والعهد هو الوصية المغلظة الموثقة.

(جِبِلًّا كَثِيرًا): الجبل (بكسر الجيم والباء واللام المشددة) هم الخلق الكثير، والكلمة مشتقة من الجبل لقوتهم وتجذرهم، وفيه إشارة إلى ضخامة الأعداد التي أضلها الشيطان عبر التاريخ.

إشراقة بلاغية: في قوله (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) تعليل للأمر بترك عبادته، ووصفه بـ "مبين" يشنع على بني آدم؛ كيف تتبعون من أظهر لكم العداوة جهراً منذ أبيكم آدم؟ وفي قوله (وَأَنْ اِعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) إيجاز قصر بديع يختصر منهج النجاة كله في طاعة الله وحده.

المقاصدي: إقامة الحجة الرسالية والفطرية على البشر، وتذكيرهم بالعهد المأخوذ عليهم، وتعزية غباء الإنسان الذي يسلم قياده لعدوه اللدود تاركاً عقله (أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ).

* (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ): (هَذِهِ): اسم إشارة للمؤنث القريب، جرت به الإشارة لجهنم لشدة قربها منهم ورؤيتهم لها عياناً الآن.

(اصْلَوْهَا): فعل أمر من صلي النار (أي ذوقوا حرها والتبسوا بها بقوة). الباء في {بِمَا} سببية، و{مَا} مصدرية (أي بسبب كفركم).

إشراقة بلاغية: الإشارة بـ "هذه" فيها تجسيد فظيع للمصير؛ هاهي جهنم تُقرب وتُعرض أمامهم فيقال لهم تقریباً: أليست هذه التي كنتم تكذبون بها في الدنيا وتسخرون من الوعيد بها؟

المقاصدي: تحقيق الوعيد الإلهي بدخول جهنم عدلاً بسبب الكفر والإصرار عليه، وهو ما يركز عليه محمد قطب في حديثه عن واقعية العقيدة والجزاء الحتمي.

* (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ):

(نَخْتِمُ): الختم هو الطبع والإغلاق، ومجيء الفعل مضارعاً (نَخْتِمُ، وَتُكَلِّمُنَا، وَتَشْهَدُ) يستحضر صورة الحدث العجيبة في الذهن كأنها تقع الآن أمام القارئ.

تعدية النطق للأيدي بـ (وَتُكَلِّمُنَا) والشهادة للأرجل بـ (وَتَشْهَدُ) تفريق لغوي دقيق؛ اليد تتكلم مباشرة عن فعلها، والرجل تشهد على السعي والمشى لمكان المعصية.

البلاغي: استعارة ونوع فريد من المجاز العقلي بنسبة الكلام والشهادة للجوارح الصامتة في الدنيا. هذا المشهد يمثل قمة الخزي للكافر؛ حين يجد أدواته التي عصى بها تنقلب ضده وتفضح أسراره أمام رؤوس الأشهاد.

المقاصدي: إبطال أي محاولة للمجادلة أو الكذب والإنكار من الكفار يوم القيامة، وإظهار أن الكون وجسد الإنسان كله مطيع لله وخاضع لسنته التكوينية وإن عصاه الإنسان بـ "إرادته التشريعية التكليفية" في الدنيا.

* (وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ... وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ...): (لَوْ): حرف امتناع لامتناع (امتنع الطمس والمسح لامتناع مشيئة الله لذلك رحمة وابتلاء لهم في الدنيا).

(لَطَمَسْنَا): الطمس هو إزالة أثر الشيء حتى يستوي، والمعنى جعل عيونهم ممسوحة بلا شق أو بصر.

(فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ): الفاء عاطفة، واستبقوا الطريق أي تسابقوا إليه كعادتهم، ولكن (فَأَنَّى يُبْصِرُونَ) استفهام توبيخي استبعادي (كيف يبصرون وقد طمست أعينهم؟).

(لَمَسَخْنَاهُمْ): المسخ تغيير الصورة والشكل إلى شيء مشوه أو جماد، (عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ) أي في أماكنهم وبيوتهم دون حاجة لنقلهم.

إشراقة بلاغية: في الآيتين احتباك وبلاغة ناتجة عن التهديد بقدرة الله المطلقة في الدنيا والآخرة. الله قادر على حرمانهم من وسائل الحركة (الأرجل بالمسح) ووسائل التوجيه (الأعين بالطمس) ولكنه تركهم هكذا إمهالاً حكيماً.

المقاصدي: بيان مئة الله ولطفه بالخلق حتى الكفار منهم، وتنبههم إلى أن النعم التي يتقلبون بها (البصر والقدرة على الحركة والذهاب والإياب) هي نعم تحت قهر المشيئة الإلهية، لو شاء لسلبها منهم في لمح البصر.

* (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ): (مَنْ): اسم شرط جازم. (نُعَمِّرْهُ): فعل الشرط مجزوم، والهاء ضمير مبني في محل نصب مفعول به، و(نُنَكِّسْهُ): جواب الشرط مجزوم بالسكون.

النكس هو قلب الشيء على رأسه، وجعل أعلاه أسفله، والمراد رده إلى أُرذل العمر (ضعف البنية، انحناء الظهر، ذهاب العقل والذاكرة) كأنه عاد طفلاً صغيراً بعد أن كان شاباً قوياً.

إشراقه بلاغية: المقابلة التكوينية العجيبة بين صعود خط العمر وقوته، ثم هبوطه الحتمي. التنكير والتشبيه الضمني للإنسان في هذه الآية يمثل لفظة واقعية تقع تحت بصرهم كل يوم ليروا حدود قدرة المخلوق أمام الخالق.

المقاصدي: الختام البديع لهذا المقطع المزلزل؛ فبعد أن أخذنا السياق إلى مشاهد الغيب البعيد (النفخ، القبور، الجنة، النار، شهادة الجوارح) يعود بنا فجأة إلى واقع دنيوي نراه بأعيننا وهو "الهرم والشيخوخة"؛ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَهُمْ وَلِكُلِّ مَلْحَدٍ: إِنْ كُنْتُمْ تَشْكُونَ فِي قَدْرَتِنَا عَلَى الْبَعْثِ وَالتَّبْدِيلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَانظُرُوا كَيْفَ نَبْدِلُ خَلْقَكُمْ وَنَكْسَهُ فِي الدُّنْيَا أَمَامَ أَعْيُنِكُمْ! (أَفَلَا يَعْقِلُونَ) لتدركوا أن من ملك البداية والتحويل في الدنيا، يملك الإعادة والحساب في الآخرة.

* (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (70) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ ۗ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ (75) فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ ۗ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۗ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۗ بَلَىٰ ۗ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)).

هذا المقطع الختامي المذهل من سورة يس (من الآية 69 إلى 83) يمثل ذروة السورة وقاعدتها الرصينة التي تلخص معركتها مع العقيدة الجاهلية. ينتقل السياق هنا من آيات الأنفس وسنن الحياة والموت إلى تثبيت حقيقة الوحي، ثم إلى براهين التوحيد عبر استعراض نعم الخلق والتذليل، لينتهي بأقوى مناظرة قرآنية في إثبات البعث والنشور، مكللة بتسبيح ملكوت الله المطلق.

* (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ): (وَمَا عَلَّمْنَاهُ):
نفي صريح مستند إلى ضمير العظمة (نا)، فالتعليم منفي من أصله بتقدير الله وقضائه.

(وَمَا يَنْبَغِي لَهُ): "ينبغي" لغة تفيد الامتناع الذاتي والشرعي والكوني؛ أي لا يصح، ولا يتأتى، ولا يتناسب مع مقامه الشريف صلى الله عليه وسلم.

(إِنْ هُوَ إِلَّا): أسلوب قصر وحصر بـ "إن" النافية وإلا، لحصر طبيعة هذا الوحي في كونه ذكراً وقرآناً لا غير.

إشراقة بلاغية: المقابلة الفذة بين طبيعة الشعر (القائم على التخيل، والمشاعر المتقلبة، والظنون) وطبيعة القرآن (القائم على الحقيقة المطلقة، واليقين، والهدى). وفي وصف القرآن بـ (مُبِينٌ) (اسم فاعل من أبان) إشارة إلى أنه مظهر للحقائق وكاشف للشبهات، عكس الشعر الذي قال عنه العرب "أعذبه أكذبه".

المقاصدي: يرى ابن عاشور وسيد قطب - رحمهما الله - أن هذه الآية جاءت لقطع دابر شبهات المشركين الذين حاولوا حصر الإعجاز القرآني في "الظاهرة الشعرية" هرباً من استحقاقات الوحي والرسالة؛ فبرأ الله نبيه من أدوات الشعر ليبقى الوحي خالصاً في عليائه.

* (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ): (لِيُنذِرَ): اللام لام التعليل، والفاعل ضمير مستتر يعود على القرآن أو على الرسول.

(مَنْ كَانَ حَيًّا): مجاز مرسل عن "المؤمن"، وعلاقة ذلك هي الحيوية الروحية والعقلية.

المقابلة النحوية والسياقية بين (حَيًّا) وبين (الْكَافِرِينَ)؛ ولم يقل "ومن كان ميتاً"، بل وضع الكافرين مكان الموتى لبيان أن الكفر موت حقيقي لا حيوية معه.

إشراقة بلاغية: طباق معنوي خفي وعميق بين الحياة والكفر، وفي تعبير (وَيَحِقُّ الْقَوْلُ) إيجاز بديع؛ فالقول هو "كلمة العذاب" أو الحجة البالغة، وبناء الفعل للوجوب والثبوت الإلهي.

المقاصدي: تحديد مقاصد الوحي؛ وهو إحياء القلوب القابلة للهداية بالإنذار، وإقامة الحجة القاطعة على المعاندين حتى يكون عذابهم محض عدل.

* (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ): هذا عود للآيات التي يلحون في طلبها، وهي ماثلة بين أيديهم.

الهمزة للاستفهام الإنكاري التعجبي، والواو عاطفة على مقدر (أغفلوا ولم يروا؟).

(مِمَّا عَمِلْتُمْ أَيْدِيَانَا): إضافة العمل إلى الأيدي (مع تنزيه الله عن التشبيه) تفيد الانفراد بالخلق والتكوين المباشر دون واسطة أو شريك، وهو أسلوب تشریف وتعظيم لهذه النعمة.

الفاء في (فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ) تفيد السببية والترتيب؛ أي بسبب خلقنا وتمليكنا إياهم صاروا مالكين متصرفين.

إشراقة بلاغية: قصر الامتنان في قوله (خَلَقْنَا لَهُمْ)؛ فالأنعام خلقت لمصلحة الإنسان أولاً بالرغم من ضخامة جثثها مقارنة ببني آدم.

المقاصدي: نقل الفكر البشري من الغيب إلى المشاهد المنظور لإثبات ربوبية الله، والتنبيه على منة "الملكية التامة" التي يتمتع بها الإنسان كامتياز رباني.

* (وَدَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ): (وَدَلَّلْنَاهَا): التضعيف (ضعف اللام) يفيد المبالغة في التسيير والقياد؛ فالجمل الضخم يقوده الطفل الصغير وينيحه بكلمة، وهذا التذليل تسخير كوني تسكين.

(فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ): تقديم الجار والمجرور (فَمِنْهَا) للاهتمام والحصص النسبي، و"رُكُوب" (بفتح الراء) هو ما يُركب من الدواب.

إشراقة بلاغية: حسن التقسيم والترتيب لفوائد الأنعام؛ بدأ بالركوب والحمل (الحاجة الخارجية الشاقة)، وثنى بالأكل (الحاجة الداخلية الأساسية).

المقاصدي: يذكر ابن القيم - رحمه الله - في "مفتاح دار السعادة" أنّ تذليل الحيوانات القوية العاتية للإنسان الضعيف هو من أعظم الأدلة على أنّ للكون صناعاتاً حكيماً مدبراً غرس الوداعة في هذه الدواب لمصلحة الأدمي.

* (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ): (مَنَافِعُ): جمع تكسير يفيد الكثرة والتنوع (الجلود، الأوبار، الأصواف، السمن).

(وَمَشَارِبُ): خُصت بالذكر بعد العموم لعظم منة اللبن (الحليب) الذي يخرج من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً، وقد يستفاد من الأبل في الطواري، فيوردونها الماء فتشرب رويًا قبل عبور الأرض المهلكة، فإذا عطشوا نحرروا الإبل للأكل وشربوا ما خزنته في بطونها من ماء، وقوله: (أَفْلا يَشْكُرُونَ): استفهام إنكاري توبيخي، يثير الوجدان البشري.

إشراقة بلاغية: الإيجاز الشديد في كلمة (مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ) التي تنطوي تحتها صناعات واقتصادات وحضارات قامت على الأنعام، وأنواع من المشارب كذلك.

المقاصدي: استثارة العاطفة الفطرية الإنسانية لربط النعمة بالمنعم، وبيان أن الغاية من سَوَق النعم هي "الشكر" والعبودية.

* (وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ): الواو استئنافية تعقيبية تشير إلى مفارقة فظيعة وعجيبة (فبدل أن يشكروا، اتخذوا!).

(لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ): "لعل" تفيد الرجاء والتعليل لظنهم الواهم؛ أي اتخذوها رجاءً أن تنصرهم أو تشفع لهم.

إشراقة بلاغية: تهكم بليغ بعقول المشركين؛ فبينما يتقبلون في نعم الله، يذهبون لطلب النصر والرزق من حجارة جماد لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً.

المقاصدي: تشخيص المرض العقلي البشري عند الانحراف عن الفطرة؛ وهو التعلق بالأسباب الواهية وترك المسبب الحقيقي سبحانه.

* (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ): ضمير الواو في (لَا يَسْتَطِيعُونَ) يعود على الآلهة (عُتِرَ عنها بضمير العقلاء مجازاً لزعم الكفار أو تهكماً بهم).

(وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ): يرى البقاعي وابن عاشور - رحمهما الله - فيها وجهين؛ إما أن الكفار في الدنيا جند يحامون عن آلهتهم المصنوعة (وهذا قمة العجب أن يحمي العابد معبوده!)، أو أنهم جميعاً سيحضرون في النار معاً كخصوم، كما قال تعالى: (احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَأْجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ) [الصفات: 22].

إشراقة بلاغية: المقابلة الساخرة بين الرغبة في النصر (نصرون) والواقع الحتمي (لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ).

المقاصدي: تحطيم الكبرياء الشركي وتبيان حقيقة الأوثان والزعامات الباطلة؛ فهي عاجزة تكويناً، ومآلها ومآل أتباعها الخسران والمحاضرة القسرية بين يدي العدالة الإلهية.

* (فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ): الفاء تفيد التفرغ والسلوان، ولا الناهية الجازمة (فَلَا يَحْزُنُكَ).

جملة (إِنَّا نَعْلَمُ...) مستأنفة استئنافية بيانياً تعليلياً للنهي عن الحزن (فلا تحزن لأننا محيطون بهم وسنجزئهم).

إشراقة بلاغية: المقابلة بين {يُسِرُّونَ} و{يُعْلِنُونَ} لاستيعاب سائر أحوالهم وأقوالهم، وإيجاز حذف؛ لم يذكر القول (تكذيبهم، شتمهم، رميهم إياه بالسحر والشعر) تشريفاً لمسامع النبي وتعميماً لكل أذى قولي. وفي صيغة العظمة {إِنَّا نَعْلَمُ} طمأنينة مطلقة لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم.

المقاصدي: دعم نفسي ورسالي مستمر للداعية؛ فالله يعلم حقيقة المعركة وحجم المكر الخفي والعلني، وهذا العلم الإلهي بحد ذاته كافٍ لنسف الحزن من قلب المؤمن، وهو ما أبدع سيد قطب في وصفه بـ "الرعاية الربانية المباشرة لحامل الدعوة".

* (أَوْلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ): (أَوْلَمْ يَرَ): استفهام توبيخي تعجبي مقترن بلم الجازمة، والرؤية هنا رؤية علمية قلبية وبصرية معاً.

(فَإِذَا): هي الفجائية التامة، التي تختزل المسافة الزمنية الهائلة والتحول الجذري بين أصل النشأة ونهايتها.

(خَصِيمٌ): صيغة مبالغة على وزن (فعليل)؛ أي شديد الخصومة والجدال بالباطل.

إشراقة بلاغية: مفارقة تصويرية مذهلة وتناقض صارخ؛ البداية (نطفة) مهينة ضعيفة لا تملك لنفسها شيئاً، والنهاية (خصيم مبين) يرفع عقيرته ليجادل خالقه! هذا الالتفات من الضعف المائي الشديد إلى القوة الكلامية الشرسة يبرز لؤم الإنسان الكافر.

المقاصدي: إيراد أصل نشأة الإنسان كأكبر حجة عقلية على إمكانية إعادته، والتعجب من وقاحته الاستكبارية.

* (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ^طقَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ): الواو حالية، وجملة (نَسِيَ خَلْقَهُ) في محل نصب حال، وهي النكتة المركزية في الآية؛ فلو تذكر كيف خلق أولاً لما تجرأ وضرب هذا المثل.

(رَمِيمٌ): لم يقل "رميمة"؛ لأن رميم على وزن فعيل بمعنى مفعول (أي مرمومة متهالكة)، ويستوي فيها المذكر والمؤنث كـ "كحليل وجريح"، أو لأنها نعت لـ "العظام" باعتبارها جنساً أو اسماً مفرداً في المعنى.

إشراقة بلاغية: الاستعارة والتمثيل الحركي؛ (نزولاً عند سبب النزول في العاص بن وائل أو أمية بن خلف حين فتت العظم الميت بيده ونفخه في الهواء قائلاً: أيزعم محمد أن هذا يبعث؟). في قوله (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا) تصوير لتبجح الجاهلية التي تحاكم الإله بحدود العقل البشري المحدود.

المقاصدي: يوضح ابن تيمية - رحمه الله - هنا كيف يقيس الكافر الخالق بالماخولق قياساً فاسداً (قياس الغائب على الشاهد)؛ فنسي أن قدرة الله لا يقاس عليها عجز البشر.

* (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ^طوَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ): (قُلْ): فعل أمر يلقن الحجة القاطعة الفورية لنبيه، وفيه تفويض إلهي مباشر.

(أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ): قياس عقلي رصين يسمى "قياس الأولى"؛ فالإيجاد من العدم (الإنشاء الأول) أصعب عند العقل البشري من إعادة التركيب، مع أن الأمرين عند الله سواء.

تقديم الجار والمجرور (بِكُلِّ خَلْقٍ) على "عليم" يفيد الإحاطة المطلقة؛ فهو عليم بالذرات المفتتة أين ذهبت وكيف يعيدها.

إشراقة بلاغية: المقابلة بين الإنشاء الأول والإحياء الثاني. والجملة التذييلية (وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) تؤسس لقدرة نابغة من علم كامل لا يشذ عنه مثقال ذرة.

المقاصدي: إرساء برهان البدء والإعادة كقاعدة عقلية يقينية لدحض المادية الإلحادية، وتأكيد كمال العلم الإلهي المحيط بصيرورة الأجساد.

* (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ): (الَّذِي): نعت أو بدل من الاسم الموصول السابق لتوكيد وتفصيل صفات القدرة، (فَإِذَا): فجائية مرة أخرى، تبرز سرعة اندلاع النار وخروجها من الضد.

إشراقة بلاغية: طباق وإعجاز رائع يجمع بين المتضادين: الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والماء (الذي هو ضد النار)، يخرج الله منه ناراً حارقة جافة (وهذا إشارة لشجر المرخ والعفار أو المفهوم الفيزيائي العام للطاقة المخزنة في النبات). إخراج الشيء من ضده هو برهان على إخراج الحي (الإنسان البعيث) من الميت (العظام الرميم).

المقاصدي: لفت الانتباه إلى طلاقة السنن الإلهية وقدرته على كسر المألوف؛ فالذي أودع الحرارة النارية في الرطوبة المائية النباتية قادر على إعادة الحياة للأجساد الجافة الكامنة في التراب.

* (أَوَّلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ):

الهمزة للاستفهام التقريري، وجاءت الباء الزائدة في خبر ليس (بِقَادِرٍ) لتوكيد وتمكين القدرة في الذهن.

(بَلَىٰ): حرف جواب لإبطال النفي المقترن بالاستفهام، وتأكيد الإيجاب قطعاً (أي: نعم هو قادر).

صيغ المبالغة {الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}؛ خلاق لكثرة وتكرار وتنوع خلقه، وعليم بدقائقه وملايساته.

إشراقة بلاغية: الانتقال من الحجة الصغرى (النفطة، الشجر) إلى الحجة الكبرى الكونية (السموات والأرض). وهذا كقوله تعالى: (لَخَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ). هذا الاستدلال يسمى في البلاغة "الانتقال من الأدنى للأعلى" لتشبيد صرح اليقين.

المقاصدي: تدمير الاستعظام البشري لعملية البعث؛ فمقارنة الإنسان بالكون الشاسع تجعله لا شيء، فمن أبدع النظام الكوني الهائل أيسر عليه إعادة ذرة بشرية.

* (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ): (إِنَّمَا): أداة حصر وقصر لكيفية التدبير والتكوين الإلهي.

(شَيْئًا): نكرة في سياق الشرط تفيد العموم المطلق لأي كائن، كبيراً كان أو صغيراً.

الفاء في (فَيَكُونُ) عاطفة تفيد التعقيب الفوري المباشر بلا أي مهلة أو تراخٍ أو جهد.

إشراقه بلاغية: (كُنْ فَيَكُونُ) هو أرقى تمثيل بلاغي مجازي لسرعة نفاذ المشيئة الإلهية، دون أن يكون هناك كلام حروفي ممتد أو معاناة مع المادة؛ بل هو محض التكوين السريع الخاطف بمجرد الإرادة.

المقاصدي: تقرير عقيدة القدرة الإلهية الخارقة المطلقة، وقطع كل وهم بشري يبحث عن الأسباب المادية المعتادة في عملية البعث؛ فالأمر كوني تكويني محض لا يقف أمامه مستحيل.

* (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ): الفاء فصيحة عاطفة، وتأتي هنا كـ "خاتمة فذلِكَ" للسورة كلها بناءً على الحجج السابقة.

(سُبْحَانَ): مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (أسبح)، وهو يفيد التنزيه والتفديس المطلق لله عن العجز والشرك والظلم.

(مَلَكُوتُ): صيغة مبالغة من "الملك" (على وزن فَعْلُوت)، وهي تدل على الملك التام الواسع، الممتد والشديد الهيمنة على بواطن الأمور وظواهرها.

تقديم الجار والمجرور في (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) يفيد الاختصاص المطلق للحصر والبعث.

إشراقه بلاغية: الختام البديع الذي يرد عجز السورة على صدرها؛ بدأت بذكر التنزيل والرسالة والكفار، وختمت ببيان أن ملكوت الكون كله بيده وحده، والالنفات الشديد العنيف من الغيبة إلى الخطاب الجمعي الرهيب {تُرْجَعُونَ} ليكون آخر ما يقرع أذان الخلق والسامعين هو حتمية العودة والوقوف بين يدي صاحب الملكوت.

المقاصدي: تلخيص مقاصد سورة يس الكبرى؛ تنزيه الله، إثبات ربوبيته المطلقة، إحاطته بالملك والتدبير، وربط البداية بالنهاية في كلمة "ترجعون" ليعيش

الإنسان في ظلال هذه العبودية مستعداً ليرقى في معارج المؤمنين الذين يسلمون لرب العزة والجلال.

*

سورة الصافات

تسمية السورة

(سورة الصافات) أو (سورة والصافات): سميت بهذا الاسم لقوله تعالى في الآية الأولى منها (والصافات صفا)، وهو الاسم الأكثر تداولاً في المصاحف وكتب التفسير.

وقد يطلق عليها أسماء أخرى اجتهادية مثل (سورة الذبيح) لأنها السورة التي انفردت بذكر قصة ذبح إسماعيل عليه السلام لابن إبراهيم الخليل عليهما السلام في قوله تعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: 102]

(سورة الزينة): أخذاً من قوله تعالى: {إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} [الصافات: 6].

وهي سورة مكية باتفاق المفسرين وعلماء علوم القرآن، فهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية وتوحيد الله، وإبطال الشرك، وقصص الأنبياء، وكلها من خصائص السور المكية.

وقد ورد اختلاف في عد آياتها، فهي في العد الكوفي (وهو المعتمد في المصاحف المطبوعة اليوم: 182 آية، وفي مدرسة العد البصري: تبلغ عدد آياتها 180 آية، وفي مدرسة العد الشامي: تبلغ عدد آياتها 181 آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

* (وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (8) دُخُورًا^ط وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ

فَاتَّبَعَهُ شِبْهَابٌ ثَاقِبٌ (10) فَاسْتَفْتَنَهُمْ أَهْمُ أَشَدُّ حَافًا أَمْ مَن حَافُنَا إِنَّا حَافُنَاهُمْ مِّن طِينٍ
لَّازِبٍ (11) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12) وَإِذَا دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً
يَسْتَسْخَرُونَ (14) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (15) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا
لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَّابُونَ الْأُولُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (19) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي
كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ
دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24) مَا لَكُمْ لَا
تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26)

هذه الآيات الافتتاحية في هذا الدرس من سورة الصافات تمثل هزة شعورية
وهندسية خارقة في البناء القرآني. فالسورة مكية تجري في سياق معركة العقيدة
الكبرى: إثبات الوجدانية، وتدمير الوثنية، وتحطيم التكذيب بالبعث.

المقصد العام للمطلع: يقول ابن عاشور إن مقصد هذا المطلع هو الانتقال
بالنفس البشرية من ضيق الأرض وجدلها الوثني إلى سعة ملكوت السماوات، لإثبات
وحدانية الله وإبطال الشرك. أما سيد قطب فيرى في ظلال هذا المطلع حركة كونية
سريعة حاشدة تملأ النفس روعة وخشوعاً (صفوف، زجر، تلاوة، شهب ثاقبة)، تهيب
القلب لاستقبال الحقيقة الكبرى: (إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ).

* (وَأَلْصَقَتْ صَفًّا): الواو واو القسم. "الصافات" اسم فاعل من صَفَّ. "صفاً"
مفعول مطلق مؤكد للفعل المشتق منه اسم الفاعل، لبيان حقيقة الصف وإتقانه.

قال ابن عباس والحسن وقتادة: هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق
في الدنيا للصلاة.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ألا
تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا قَالَ قُلْنَا وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا قَالَ
يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ [1].

إشراقة بلاغية: أقسم الله سبحانه بالملائكة في حال اصطفافها للعبادة أو لتنفيذ
الأمر، وأوضح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم - رحمهما الله- أن هذا الترتيب
والاصطفاف يعكس منتهى العبودية والانقياد، وهو تعليم للمؤمنين بالنظام. وفي تنكير
"صفاً" تفخيم لهذا الاصطفاف العظيم الذي لا تحيط به العقول.

* (فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا)، يعني الملائكة تزجر السحاب، وتوقه، وسر الفاء: عاطفة
تفيد الترتيب والتعقيب الذاتي (أي الصافات هي ذاتها الزاجرات، أو طائفة تليها في

1 - أخرجه ابن خزيمة (818) وهذا لفظه، وابن ماجه، (992)، ومسلم (430)، وأبو داود
(661)، والنسائي (816) جميعهم باختلاف يسير.

الرتبة). الزجر: الدفع والمنع بقوة وصوت، وقال قتادة: هي زواجر القرآن تنهى وتزجر عن القبائح.

إشراقة بلاغية: يذكر البقاعي في "نظم الدرر" أن الانتقال من الصف إلى الزجر هو انتقال من حال السكون والتهيو إلى حال الحركة والعمل. الملائكة تزجر السحاب، أو تزجر الشياطين، أو تزجر بني آدم بالخيرة عن الشر. المفعول المطلق "زجرأ" هنا يحمل قوة صوتية وهيبة تتسق مع جلال القسم.

* (فَالْتَلَيْتِ ذِكْرًا): هم الملائكة يتلون ذلك الله عز وجل، وقوله تعالى: "ذِكْرًا" مفعول به لاسم الفاعل "التاليات" أو مفعول مطلق مبين لنوع التلاوة.

هذا هو ذروة الترقي؛ اصطفاة، فعمل وحركة (زجر)، ثم غاية الغايات وهي تلاوة الذكر والوحي وتوحيد الله. يبين ابن عاشور أن السرد بالوصف المشتق (صافات، زاجرات، تاليات) دون التصريح بالملائكة يزيد من غموض المشهد المهيب، مما يشد انتباه التالي لكتاب الله، بعد أن شد من استمع القرآن من المشركين الذين كانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله (تعالى الله عن ذلك)، فجاء الوصف يبين عظم عبوديتهم لربهم.

* (إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ)، البلاغة والنحو: هذا هو جواب القسم. مؤكد بـ (إِنَّ) و(لَامِ) الابتداء/المزحقة في المبتدأ.

السياق والمقاصد: بعد ثلاثة أقسام كونية غيبية هائلة، يأتي الجواب حاسماً قاطعاً. يقول محمد قطب في ظلال العقيدة: هذا الأسلوب يقطع دابر التردد؛ فالإله الذي تخضع له هذه القوى الغيبية وتصطف وتزجر وتتلو بذكره، لا يمكن أن يكون إلا واحداً.

* (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ): "ربُّ" بدل من "واحد" أو خبر لمبتدأ محذوف.

إشراقة بلاغية: ذكر "المشارك" بصيغة الجمع يشير بلاغياً وعلمياً إلى تعدد مطالع الشمس باختلاف الأيام والفصول، وهو دليل حركة الفلك المنظمة، وقد أشار ابن القيم - رحمه الله - إلى أن قرن ركائز الكون (السموات والأرض) بالمشارك (مصدر النور والحياة) هو استدلال بالخلق والتدبير على استحقاق العبادة وحده.

أمّا قوله تعالى: (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) [المزمل:9] أراد به الجهة، فالمشرق جهة، والمغرب جهة، وأمّا قوله تعالى: (رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ) [الرحمن:17] أراد مشرق الشتاء ومشرق الصيف، وأراد بالمغربيين: مغرب الشتاء ومغرب الصيف.

* (إِنَّا زَيْنًا أَلْسَمَاءَ أَلْدُنْيَا بِزَيْنَةِ الْكَوَاكِبِ): قرأ أكثر العشرة بالإضافة "بزينة الكواكب"، وقراءة عاصم وحمزة بالتثنية "بزينة الكواكب"، وقرأ الكسائي بترك التثنية، وإمالة ها التأنيث وفقاً. السماء الدنيا: القريبة من الأرض، والمعنى: الكواكب زينة للسماء وحفظ.

إشراقة بلاغية: يلتفت سيد قطب هنا إلى اللمسة الجمالية في التصور الإسلامي للكون. الكون ليس مجرد آلة صماء، بل هو مبني بجمال وزينة تسر الناظرين، فالكواكب مصابيح تتلألأ وتطرد قتامة الليل.

* (وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ): "حفظاً" مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (وحفظناها حفظاً)، وهو معطوف على محل "بزينة" لأن تزيين السماء متضمن لحفظها. و(المارد): العاتي الخارج عن الطاعة الخالي من الخير.

المقاصد: هنا يتحول المشهد الكوني إلى معركة وحماية؛ فالسماء ليست مجرد جمال، بل هي حصن مشيد ضد قوى الشر التي تحاول اختراق الغيب.

وفي سورة الأنبياء: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۗ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ) [الأنبياء: 32]، قيل: أي محفوظاً من أن يقع ويسقط على الأرض؛ دليله قوله تعالى: ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. وقيل: محفوظاً بالنجوم، وقيل: محفوظاً من أن تخترقه الأشعة التي لو اخترقت لأحدثت في الأرض خراباً كثيراً ومصائب. فسبحان الله الحفيظ.

* (لَّا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى) أي: إلى الكتبة من الملائكة، والملا الأعلى هم الملائكة، لأنهم في السماء، والمعنى: إنهم لا يستطيعون الاستماع إلى الملا الأعلى (وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ): "يَسْمَعُونَ" بتشديد الميم، أصلها يتسمعون، أدغمت التاء في السين تفيد المبالغة في محاولة الاستماع والجهد المبذول فيه، والملا الأعلى: هم عالم الملائكة المقربين. "يُقَدِّفُونَ" أي الشياطين: مبني لما لم يسم فاعله، للدلالة على قوة القذف وتلقائيته من جهات غير معلومة للشيطان.

يقول ابن تيمية – رحمه الله-: إن هذه الآيات قطعت حبال الكهانة والدجل؛ فالشياطين معزولة تماماً ومطرودة من مراكز القرار الكوني والوحي الصافي.

* (دُحُورًا) مفعول لأجله أو مفعول مطلق، والدَّحْر هو الطرد بعنف وإهانة، أي: يبعدونهم ويدحرونهم دحراً عن مجالس الملائكة، (وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ) أي: دائم، وموجع وملازم.

إشراقة بلاغية: تقابل عجيب؛ طرد فوري عاجل في الدنيا عن الملا الأعلى (دحوراً)، وعذاب سرمدى أجل وملازم (واصب).

* (إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ) أي: اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة، (فَاتَّبَعَهُ) لحقه (شِهَابٌ ثَاقِبٌ) كوكب مضيء قوي يقتله أو يحرقه أو يخبله.

والخطفة هي الأخذ بسرعة فائقة واختلاس. "شهاب ثاقب": شهاب يثقب الظلام أو يثقب جسم الشيطان بضوئه وحرارته.

المشهد متحرك يعرضه القرآن بقوة مذهلة؛ حركة الشيطان السريعة المختلسة الخائفة (خطف الخطفة) يتبعها فوراً تعقيب سريع بالفاء (فاتبعه) لشهاب خارق يدمره، مما يبرز حسم المعركة بين الحق والباطل في جنبات الكون.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعَنَانِ -وهو السحاب- فَتَذَكُرُ الْأَمْرَ فُضِي فِي السَّمَاءِ، فَتَسْتَرْقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ، فتوحيه إلى الكُفَّانِ، فيكذبون معها مئة كذبة من عند أنفسهم [1].

وهذا والله أعلم لو نفذ منه شيء، أو قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، ففي سورة الجن قال الله تعالى عنهم: (وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُحَلَّيَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا، وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) [الجن: 8-11].

ثم بعد أن استقر المشهد الكوني العلوي في النفوس، يلتفت السياق بقوة إلى المشركين المنكرين للبعث بمقارنة تكسر كبرياءهم.

* (فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهْمَ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) أي: استفهمهم، واستخبرهم (والمراد التوبيخ والتفريع). وقوله سبحانه (طين لازب)، أي: طين لزج قوي يلتصق ببعضه.

إشراقه بلاغية: في الآية إيجاز حذف بديع؛ "أم من خلقنا" أي الملائكة والسموات والأرض والكواكب. والمقارنة هنا لإقامة الحجة: من خلق هذا الكون العظيم، أيعجز عن إعادة هؤلاء البشر المخلوقين من طين لزج ضعيف؟

* (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ): قراءة "عَجِبْتَ" بفتح التاء (خطاب للنبي ﷺ)، وقراءة "عَجِبْتُ" بضم التاء (مسندة إلى الله بما يليق بجلاله من عجب الاستعظام لجهلهم).

وقد سئل موقع الإسلام ويب: عند قراءة آية: (بل عجبت ويسخرون) بفتح التاء، وقراءة: (بل عجبت ويسخرون) بضم التاء.

1 - أخرجه البخاري (3210) وابن وهب في ((الجامع)) (691)، والطبري في ((جامع البيان)) (504 / 19) بلفظه.

القراءة الأولى: يخاطب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه عجب. والقراءة الثانية: الله يعجب؟

فكانت الإجابة: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فإن قراءة (بل عجبت ويسخرون) بضم التاء هي قراءة صحيحة متواترة، ولا إشكال فيها.

فالعجب من الله -عز وجل- ليس كتعجب المخلوقين، وإنما هو صفة ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله سبحانه.

جاء في تفسير البغوي: (بل عجبت) قرأ حمزة، والكسائي: بضم التاء، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس - رضي الله عنهما - والعجب من الله -عز وجل- ليس كالتعجب من الأدميين، كما قال: (فيسخرون منهم سخر الله منهم) [التوبة -79]، وقال عز وجل: (نسوا الله فنسيهم) [التوبة -67]. انتهى.

إشراقه بلاغية: تباين شعوري غريب؛ الرسول يعجب من إعراضهم مع وضوح الآيات، وهم في المقابل يقابلون هذا الجلال بالسخرية والعبث. هذا تصوير لبؤس النفس البشرية حين تنقطع عن الله.

* (وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ): بلاغة: بناء "ذُكِّرُوا" لما لم يسم فاعله يفيد العموم، أيًا كان المذكِّر وآلة التذكير، فإنهم يبدون عناداً مستقراً، و"لا يذكرون" تدل على نفي تجدد عدم التذكر لديهم كأن عقولهم تحجرت.

* (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً) قال ابن عباس ومقاتل: يعني اشتقاق القمر (يَسْتَسْخِرُونَ)، بلاغة: السين والتاء في "يستسخرون" للمبالغة والطلب، أي يبالغون في السخرية ويحرض بعضهم بعضاً عليها، أو يبحثون عن أي وجه سخرية في الآية المعجزة ليريحوا ضمائرهم المعذبة بالحق.

(وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ): وعن عبد الله بن مسعود قال: انشقَّ القمرُ على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال المشركون: هذا سِحْرٌ سحرَكم ابنُ أبي كبشَةَ، ولكن انظروا إلى من يقدِّم من السفارِ فسلوهم، فقدموا فسألوهم فقالوا: رأيناها قد انشقَّ [1].

النحو والبلاغة: "إن" نافية، و"إلا" أداة حصر. الوصف بـ "مبين" أي ظاهر البطلان في زعمهم. هذا الهروب التقليدي للنفس الجاحدة؛ عندما تعجز أمام جلال النظم القرآني والآيات الكونية، تسمه بالسحر لتبرر عدم اتباعها.

1 - قال في الدرر السننية: صحيح، أخرجه أبو داود الطيالسي (293)، والبيهقي في ((دلائل النبوة)) (2/ 266)، بلفظ مقارب، وأصله في البخاري (4864)، ومسلم (2800)

* (أَعْدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوْلُونَ)، بلاغة: تكرار همزة الاستفهام الإنكاري (أئذا.. أننا) لتأكيد شدة استبعادهم. تقديم "تراباً" لأن تفتت اللحم وتحوله لتراب أبعد في نظرهم من بقاء العظام. ثم عطفوا بـ "أو آبؤنا الأولون" تزايداً في الإنكار والتهكم.

يذكر البقاعي أنّ عطف الآباء الأقدمين هو من باب التحدي العقلي العقيم عندهم، لأنهم يرون أن من سحفته القرون لا يمكن جمعه.

* (قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَخِرُونَ): "نعم" حرف جواب لتحقيق الإثبات. "وأنتم داخرون" الواو حالية، وداخرون: صاغرون أذلاء منقادون رغماً عنكم.

إشراقه بلاغية: هذا الرد خاطف كالصاعقة. لم يقل "نعم تبعثون" بل زاد عليها قيداً يكسر عنجهيتهم: ستبعثون ولكن في حالة من الذل والصغار والامثال التام الذي أنكرتموه في الدنيا.

* (فَأِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ)، بلاغة وسر النظم: (إنما) أداة قصر تفيد السهولة والسرعة. (زجرة واحدة) هي النفخة الثانية، (فإذا) هي إذا الفجائية التي تنقل المشهد فجأة من الموت والتراب إلى اليقظة والحركة وتلفت الأبصار (ينظرون).

يلق سيد قطب قاطعاً: "صيحة واحدة.. زجرة واحدة لا بطء فيها ولا مجهودة، فإذا الخلاق كلها قيام يبصرون!".

* (وَقَالُوا يُوَيْلِنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ)، بلاغياً: "يا ويلنا" نداء للويل ليحضر، فهو وقت حضور الهلاك. "هذا يوم الدين" اعتراف قسري متأخر بيوم الجزاء والحساب بعد أن كانوا يسخرون منه.

* (هُذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) البلاغة والسياق: هذا القول ليس من المشركين، بل هو قول الملائكة أو قول الله تهكماً بهم وتقريعاً. وسمي "يوم الفصل" لأنه يفصل بين الحق والباطل، والمؤمن والمجرم. تقديم "به" على "تكذبون" يفيد الاهتمام، أي: هذا اليوم عينه الذي ركزتم تكذيبكم عليه قد حضر.

* (أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ)

(أزواجهم) أي: أشباههم ونظراءهم في الكفر (الزاني مع الزاني، والمشرك مع المشرك) كما يقول ابن تيمية، وقيل زوجاتهم الكافرات.

البلاغة (التهكم الساخر): استعمال فعل "فاهدوهم" (من الهداية) في سياق السوق إلى "صراط الجحيم" هو أوج التهكم البلاغي. كانوا في الدنيا يرفضون الهداية إلى الصراط المستقيم، فجاءت هدايتهم القسرية اليوم إلى طريق جهنم!

* (وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ): (وقفوهم): احبسوهم في الموقف: هذه الآية تقشعر منها الجلود. بعد الأمر بسوقهم إلى الجحيم، يصدر أمر مفاجئ بالتوقف: "قفوهم!" لماذا؟ "إنهم مسؤولون". يرى ابن القيم أن هذا السؤال هو سؤال توبيخ وتبكيك وتنديم تدوب منه القلوب حسرة، قبل العقاب البدني.

* (مَا لَكُمْ لَا تَتَّصِرُونَ)، إشراقة بلاغية: استفهام توبيخي تنديمي. أصل "تناصرون" تتناصرون، حذف إحدى التاءين للتخفيف والسرعة، يوحي بأي نوع من التناصر في ذلك اليوم: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) [عبس:34-37]، وحتى الأنبياء يعتذرون من الشفاعة ويقولون: نفسي نفسي [1].

أين تلك العصبية الجاهلية؟ أين الأحلاف؟ أين الآلهة والزعماء؟ المشهد هنا يظهر انقطاع الروابط الدنيوية تماماً.

* (بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ): "بل" حرف إضراب لإبطال التناصر وإثبات نقيضه. السين والتاء في "مستسلمون" تفيد الانقياد التام والكامل والخضوع المطلق الذي لا حيلة معه.

الخلاصة: تنتهي هذه اللوحة بتثبيت الحقيقة التي بدأت بها الآيات: كبرياء المشركين وعنادهم الدنيوي انتهى إلى استسلام ذليل مطلق في الآخرة أمام رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق، لتتحقق العدالة المطلقة ويفصل الحق عن الباطل تماماً.

* (وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (27) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (28) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (36) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَوَاكِهِمْ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49) فَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَدِينُونَ (53) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءٍ

1 - حديث طويل من رواية أبي هريرة مرفوعاً، أخرجه البخاري (4712)، ومسلم (194)

الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة الصافات تمثل لوحة مشهدية حوارية مذهلة، تنتقل بالقراء عبر مقارنة صارخة بين عاقبتين ومصيرين. تبدأ اللوحة بمشهد مأساوي لأهل النار وهم يتبادلون الاتهامات، وتنتهي بمشهد باهر لأهل الجنة وهم يتحدثون بنعمة الله في أمن وسلام.

المشهد الأول: حوار المتبوعين والتابعين: * (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

يفتح المشهد القرآني بحالة من تبادل اللوم والتقريع والجدل العقيم، وهو أحد المقاصد التهويلية لعذاب النفس قبل عذاب البدن.

بلاغياً: صيغة الفتح في «وَأَقْبَلَ» تدل على الفجائية والمواجهة الحتمية؛ لم يعد هناك مجال للتجاهل. والتعبير بالمضارع في «يَتَسَاءَلُونَ» يفيد تجدد هذا الخصام واستمراره وتكراره، وكأنهم في دوامة لا تنتهي من تلاوم مريير، وتدمر.

(قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ): جملة (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ) مؤكدة بـ "إِنَّ" لبيان يقين التابعين بجرم قادتهم، واستخدام الفعل الماضي الناقص «كُنْتُمْ» مع المضارع «تَأْتُونَنَا» يفيد الديمومة والاستمرار في الدنيا؛ أي كانت هذه حالتكم المستمرة معنا.

إشراقة بلاغية: اليمين هنا كناية. يقول ابن عاشور إن "اليمين" عند العرب مَظَنَّةُ القوة والقدرة، فالمعنى: كنتم تقهرونا بقوتكم. ويقول البقاعي إن اليمين ترمز لجهة الخير والنصح، أي: كنتم تأتوننا من جهة النصح والدين والخير لِتُخَدَعُونَا وتصدونا عنه بـ "شبهات" تلبس لبوس الحق.

وقال البغوي: (تأوننا) أي تصدوننا، (عن اليمين) أي عن الدين، فتضلوننا عنه، قاله الضحاك، وقال مجاهد: عن الصراط المستقيم.

(قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)، بلاغة: يأتي الرد سريعاً بـ «بَلْ» التي تفيد الإضراب الإبطالي. السادة والمتبوعون يرفضون تحمل المسؤولية، ويقلبون الطاولة على التابعين.

أمّا ابن القيم فيلمح إلى أنّ هنا لطفاً عقدياً ونفسياً؛ الكفر كامن في قلوب التابعين أصلاً، والضلال كان بقرارهم، فالقادة لم يجبروهم بل وافقوا هوى في نفوس المستضعفين؛ «لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» في الأصل لتتججوا بأننا أفسدنا إيمانكم.

نفس منطوق استاذهم الشيطان – نعوذ بالله منه- كما في سورة إبراهيم عليه السلام: (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ط

وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۗ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ ۗ
مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي ۗ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونَ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [إبراهيم: 22].

* (وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ ۗ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ)، وبلاغياً: نفي القدرة
بـ «وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ»، ودخول «مِن» الاستغراقية الزائدة على النكرة «سُلْطَانٍ»
تفيد النفي المطلق؛ أي: لم نملك أي ذرة من سلطة أو حجة أو قهر تلجئكم إليها. ثم
الإضراب بـ «بَلْ»، ووصفهم بـ «قَوْمًا طَٰغِينَ» (صيغة اسم الفاعل) للدلالة على أن
الطغيان والتمرد كان سجية متأصلة فيكم.

* (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۗ إِنَّا لَذَٰئِقُونَ): هنا يستسلم الجميع للعدل الإلهي. يُبين
شيخ الإسلام ابن تيمية أن الغواية والتابعين يشتركون في الاعتراف بكلمة العذاب
الحقة؛ فالأمر خرج من أيديهم.

(فَحَقَّ) الفاء للترتيب والتعقيب على ثبوت كفرهم وطغيانهم. وجملة (إِنَّا
لَذَٰئِقُونَ) مؤكدة بـ "إِنَّ" واللام المزحلقة، وحذفت النون للإضافة لأجل الإيجاز
والسرعة في تقبل المصير المحتوم، واستعمال اسم الفاعل يدل على التحقق والثبوت.

* (فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ): بلاغياً ونفسياً: يصف سيد قطب – رحمه الله –
(في ظلال القرآن) هذه الآية بلوؤم الشياطين وضيق صدورهم في العذاب؛ كأن القادة
يقولون: نعم أغويناكم، لكننا لم نكن بدعاً في ذلك، بل كنا ضالين مثلكم، فوافق طبعنا
طبعكم. التعليل بـ (إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) اعتراف بالتماثل في السقوط.

* (فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ، إِنَّا كَذَّلِكَ نَفَعُ الْمُجْرِمِينَ): التعبير
بالجملة الاسمية المؤكدة بـ "إِنَّ" في الموضعين «فَإِنَّهُمْ...» و «إِنَّا كَذَّلِكَ...» يدل على
حتمية ودوام الاشتراك في العقاب.

بلاغياً: وضع الفاء الجزائية ليرتب النتيجة على الحوار: لا فائدة من التلاوم،
فالجميع في قاع واحد. واختيار وصف «نفع بالمُجْرِمِينَ» تعميماً للحكم؛ فكل من
أجرم بقطع النظر عن كونه تابِعاً أو متبوعاً، هذا قانون الجزاء فيه.

المشهد الثاني: سبب السقوط - الاستكبار على التوحيد: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ)

بلاغة: «إِنَّهُمْ كَانُوا» جملة تعليلية لما سبق. وبناء الفعل لما لم يسم فاعله
«قِيلَ» يعمّ القائل (سواء كان الرسول، أو المؤمنين، أو حتى الضمير الفطري).
الإتيان بالمضارع «يَسْتَكْبِرُونَ» في جواب "إذا" يفيد حدوث الاستكبار لأذانهم بمجرد
سماع الكلمة وتكرر ذلك منهم في الدنيا.

* (وَيَقُولُونَ أَنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)، بلاغة: الاستفهام بـ «أَنَّا» إنكاري توبيخي مشوب بالتعجب والأنفة. وتقديم (لَتَارِكُو آلِهَتِنَا) لبيان شدة تمسكهم بأصنامهم وعصبية الجاهلية.

كما أن وصف النبوة بـ «لشاعرٍ مجنونٍ» جمع لمتناقضين (الشعر قمة الوعي البياني، والجنون غيابه)، مما يدل على تخطبهم العقلي ونفسيته المأزومة، واستخدام اللام الجارة للتعليل تدل على أنهم يرون هذا التغيير سَفْهاً.

* (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)، بلاغة: إضراب إيطالي مستأنف من الله سبحانه لرد إفتراءهم؛ (بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ)، الحق المطلق الثابت من التوحيد وغيره، ولم يكتفِ بإثبات حقه بل أضاف (وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ) إشارة إلى أن دعوته ليست بدعاً، بل هي حلقة متصلة بسلسلة النبوات التاريخية.

* (إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَمَا تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، بلاغة: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المباشر «إِنَّكُمْ» لتحويل الخطاب وتوجيه التقرير لهم وجهاً لوجه. وحذف النون للإضافة في «لَذَائِقُو» تخفيفاً يشي بسرعة مباغته العذاب لهم. ثم تأتي بأسلوب حصر «وَمَا... إِلَّا» لتأكيد العدل الإلهي المطلق؛ الجزاء مجرد تجسيد ومطابقة تامة لعملهم الفاسد في الدنيا.

قلت: ومما صدق رسولنا صلى الله عليه وسلم الرسل قبله أن من أشرك بالله وعصى رسله سيذوقون العذاب الأليم، وفي هذا آيات كثيرة منها قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [الزمر: 65]، فإذا هو صلى الله عليه وسلم سيحبط عمله لو أشرك فغيره من باب أولى، وواضح تصديقه للرسل في ذلك.

المشهد الثالث: النعيم المقيم لعباد الله المخلصين: * (إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ)، ذهب ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله- إلى أن الاستثناء هنا منقطع (عند بعض النحاة) أو متصل من عموم المجرمين المُعَدِّين.

وقال القرطبي: إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ "لاستثناء مِمَّنْ يَذُوقُ الْعَذَابَ. وَقِرَاءَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْكُوفَةِ" الْمُخْلِصِينَ "بِفَتْحِ اللَّامِ، يَعْنِي الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ لِبِطَاعَتِهِ وَدِينِهِ وَوَلَايَتِهِ. الْبَاقُونَ بِكَسْرِ اللَّامِ، أَيِ الَّذِينَ أَخْلَصُوا لِلَّهِ الْعِبَادَةَ. وَقِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيِ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ذَائِقُو الْعَذَابِ لَكِنْ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ لَا يَذُوقُونَ الْعَذَابَ [1].

توضيح ذلك القراءة بفتح اللام «الْمُخْلِصِينَ» (اسم مفعول) لها بعد عقائدي دقيق؛ فهي تعني أن الله هو الذي اختارهم واستخلصهم لنفسه وطهر قلوبهم. ويقول

ابن القيم هنا: "المخلص (بالكسر) هو من وحد الله، والمخلص (بالفتح) هو من استخلصه الله، فصارت الطاعة له طبعاً، وعصمه من الشرك لصدق إخلاصه".

* (أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ، فَوَاكِهُ^ص وَهُمْ مُكْرَمُونَ)، بلاغة: استخدام اسم الإشارة للبعيد «أُولَئِكَ» لتفخيم شأنهم وعلو مرتبتهم. والتعبير بـ «رِزْقٌ مَّعْلُومٌ» أي معلوم بوصفه وشرفه لا بوقته وانقطاعه.

يرى ابن عاشور أن إبدال «فَوَاكِهُ» من رزق بيان وتفصيل للذة والرفاهية (الفواكه للتفكه لا لسد الجوع). ويؤكد محمد قطب في ظلال اللمسات النفسية للقرآن أن أعظم النعيم ليس الأكل، بل الجملة الاسمية «وَهُمْ مُكْرَمُونَ»، فالإكرام المعنوي والنفسي يفوق النعيم المادي لذة ورفعة.

* (فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)، بلاغة: ظرفية الجنات «فِي» تفيد الانغماس التام في النعيم. ثم الوصف الباهر «عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ»؛ التقابل ينفي التدابر والوحشة، وهو كناية عن صفاء القلوب، ونقاء السرائر من الغل، والارتياح النفسي والاجتماعي الكامل، وهذا يقابل ما كان وصف أهل النار قبل من تلاوم وتبكييت بعضهم بعضاً.

* (يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ، بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ)

قَالَ الْحَسَنُ: خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ. "لَذَّةٌ" قَالَ الزَّجَّاجُ: أَي ذَاتُ لَذَّةٍ فَحَذِفَ الْمُضَافُ. وَقِيلَ: هُوَ مَصْدَرٌ جُعِلَ اسْمًا أَي بِيضًا لَذِيذَةً، يُقَالُ شَرَابٌ لَذٌّ وَلَذِيذٌ، مِثْلُ نَبَاتٍ غَضٌّ وَغَضِيضٌ.

بلاغة: بناء الفعل لما لم يسم فاعله «يُطَافُ» للدلالة على وجود الخدم والولدان الذين يخدمونهم دون كلفة من أهل الجنة. والتعبير بـ «بِكَأْسٍ» مؤنثة وهي الخمر إذا كانت في إناء. و «مَّعِينٍ» أي جارية ظاهرة يسهل أخذها عذبة النبع.

المقارنة البلاغية مع خمر الدنيا: وصفها بـ «بَيضَاءَ» (لون ناصع يسر العين) و «لَذَّةٍ» (مصدر وُصف به للمبالغة، أي هي عين اللذة). ونفي عيوب الدنيا بـ «لَا فِيهَا غَوْلٌ» (لا تغتال عقولهم بصدايح أو وجع بطن) و (وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ) أي: لا تذهب بعقولهم بالسكر والنَّزْفُ، تقديم شبه الجملة «فِيهَا» و «عَنْهَا» يفيد القصر والحصار؛ أي خمر الجنة بريئة من هذه الآفات بخلاف خمر الدنيا.

(لَا فِيهَا غَوْلٌ) أَي لَا تَغْتَالُ عُقُولُهُمْ، وَلَا يُصِيبُهُمْ مِنْهَا مَرَضٌ وَلَا صَدَاحٌ. "وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ" أَي لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ بِشُرْبِهَا، يُقَالُ: الْحَمْرُ غَوْلٌ لِلْجِلْمِ، وَالْحَرْبُ غَوْلٌ لِلنَّفُوسِ، أَي تَذْهَبُ بِهَا. وَقَالَ: نَزَفَ الرَّجُلُ يُنْزَفُ فَهُوَ مَنْزُوفٌ وَنَزَيْفٌ إِذَا سَكَرَ.

وَقَرَأَ حَمْرَهُ وَالْكَسَائِيَّ بِكَسْرِ الرَّايِ، مِنْ أَنْزَفَ الْقَوْمُ إِذَا حَانَ مِنْهُمْ النَّزْفُ وَهُوَ السُّكْرُ، يُقَالُ: أَحْصَدَ الزَّرْعُ إِذَا حَانَ حَصَادُهُ، وَأَقْطَفَ الْكَرْمُ إِذَا حَانَ قِطَافُهُ، وَأَرْكَبَ الْمُهْرُ إِذَا حَانَ رُكُوبُهُ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى لَا يُنْفِدُونَ شَرَابَهُمْ، لِأَنَّهُ دَابُّهُمْ، يُقَالُ: أَنْزَفَ الرَّجُلُ فَهُوَ مَنزُوفٌ إِذَا فَنِيَتْ حَمْرُهُ. قَالَ الْحَطِيبَةُ:

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ ... وَلِبَسِ النَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرَا

قال النَّحَّاسُ: وَالْقِرَاءَةُ الْأُولَى أَبِينُ وَأَصْحٌ فِي الْمَعْنَى، لِأَنَّ مَعْنَى "يُنْزَفُونَ" عِنْدَ جِلَّةِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ لَا تَذْهَبُ عُقُولُهُمْ، فَتَفَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ حَمْرِ الْجَنَّةِ الْأَفَاتِ الَّتِي تَلْحَقُ فِي الدُّنْيَا مِنْ حَمْرَهَا مِنَ الصُّدَاعِ وَالسُّكْرِ. وَمَعْنَى "يُنْزَفُونَ" الصَّحِيحُ فِيهِ أَنَّهُ يُقَالُ: أَنْزَفَ الرَّجُلُ إِذَا نَفَدَ شَرَابَهُ، وَهُوَ يَبْعُدُ أَنْ يُوصَفَ بِهِ شَرَابُ الْجَنَّةِ، وَلَكِنَّ مَجَازَهُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى لَا يَنْفَدُ أَبَدًا. وَقِيلَ: "لَا يُنْزَفُونَ" بِكَسْرِ الرَّايِ لَا يَسْكُرُونَ، ذَكَرَهُ الرَّجَّاجُ وَأَبُو عَلِيٍّ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْفُشَيْرِيُّ. الْمَهْدَوِيُّ: وَلَا يَكُونُ مَعْنَاهُ يَسْكُرُونَ، لِأَنَّ قَبْلَهُ "لَا فِيهَا غَوْلٌ". أَيُّ لَا تَعْتَالُ عُقُولُهُمْ فَيَكُونُ تَكَرَّرًا، وَيَسُوعُ ذَلِكَ فِي "الْوَاقِعَةِ". وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى "لَا فِيهَا غَوْلٌ" لَا يَمْرَضُونَ، فَيَكُونُ مَعْنَى "وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ" لَا يَسْكُرُونَ أَوْ لَا يَنْفَدُ شَرَابُهُمْ

* (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عَيْنٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيَضٌ مَكْنُونٌ)، بلاغة: يشرح ابن القيم - رحمه الله - في "حادي الأرواح" جمال وصف (قاصرات الطرف)؛ أي قصرن نظرهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم لعظم محبتهم، وقصرن طرف أزواجهن عليهن لشدة جمالهن. و «عَيْنٌ» واسعات الأعين حسانها.

التشبيه البياني: (كَأَنَّهِنَّ بَيَضٌ مَكْنُونٌ) كَأَنَّهِنَّ بَيَضٌ مَكْنُونٌ "أَي مَصُونٌ. قَالَ الْحَسَنُ وَابْنُ زَيْدٍ: شَبَّهْنَ بَيَضِ النَّعَامِ، تُكْنَى النَّعَامَةُ بِالرَّيشِ مِنَ الرِّيحِ وَالْغَبَارِ، فَلَوْنَهَا أَبْيَضٌ فِي صَفْرَةٍ وَهُوَ حَسَنُ أَلْوَانِ النِّسَاءِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ: شَبَّهْنَ بِبَطْنِ الْبَيْضِ قَبْلَ أَنْ يُقَشَّرَ وَتَمَسَّهُ الْأَيْدِي. وَقَالَ عَطَاءٌ: شَبَّهْنَ بِالسَّحَاءِ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الْقَشْرَةِ الْعُلْيَا وَلِبَابِ الْبَيْضِ. وَسَحَاءُ كُلِّ شَيْءٍ قَشْرُهُ وَالْجَمْعُ سَحَاءٌ، قَالَهُ الْجَوْهَرِيُّ. وَنَحْوَهُ قَوْلُ الطَّبْرِيِّ، قَالَ: هُوَ الْقَشْرُ الرَّقِيقُ، الَّذِي عَلَى الْبَيْضَةِ بَيْنَ ذَلِكَ. وَرَوَى نَحْوَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالْعَرَبُ تُشَبِّهُ الْمَرْأَةَ بِالْبَيْضَةِ لِصَفَائِهَا وَبَيَاضِهَا، قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ:

وَبَيْضَةَ خَدْرِ لَا يَرَامُ خِبَاؤُهَا ... وَتَمَتَّعَتْ مِنْ لَهْوِ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ

المشهد الرابع: استرجاع ذكريات الدنيا والحوار مع "القرين": * (فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ)

روعة المقابلة والسياق: هذا التكرار الحرفي للآية التي بدأ بها حوار أهل النار، وهو قمة التعريض البلاغي السردية. هناك في النار أقبلوا يتلاومون ويتشامتون

ويصرخون، وهنا في الجنة يقبلون في أنس وسرور يتذكرون أيام الدنيا ومحنها بقلوب حامدة مستبشرة.

* (قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ)

تنكير الفاعل «قَائِلٌ» للتشويق. حكاية مقولة صاحب السوء في الدنيا؛ كان يسخر ويستهزئ بأسلوب استفهام إنكاري مكرر ثلاث مرات لتوكيد الاستبعاد والسخرية: «أَأَنْتَ»، «أَأَنْتَ»، «أَأَنْتَ». واللفظة النحوية الدقيقة «لَمَدِينُونَ» من "دان" أي مجزيون ومحاسبون ومربوبون بعد الموت.

* (قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ، فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)، بلاغة: ف" قَالَ " الله تَعَالَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ " هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ". وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمُؤْمِنِ لِإِخْوَانِهِ فِي الْجَنَّةِ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ إِلَى النَّارِ لِنَنْظُرَ كَيْفَ حَالَ ذَلِكَ الْقَرِينِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ. وَلَيْسَ " هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ" بِاسْتِفْهَامٍ، إِنَّمَا هُوَ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَوْ التَّمْنَى فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا تَمَنَّى شَيْئًا فِي الْجَنَّةِ أُعْطِيَهُ،

قال تعالى: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ تعني أن كل ما تتمنونه وتطلبونه سيتحقق . ﴿ وَآدِينًا مَزِيدٌ ﴾ [ق:35]، تشير إلى المزيد من النعيم الذي لم يخطر على بال بشر، وأعظمه وأجله هو النظر إلى وجه الله الكريم.

فجاء التعقيب هنا بالفاء الفجائية والترتيبية «فَاطَّلَعَ فَرَآهُ»، أين؟ (فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ)؛ أي في وسط النار وقاعها المستعر، بعد أن كان متعالياً مستهزئاً في الدنيا.

(قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)، بلاغة: قَسَمَ بِالنَّاءِ (تَاللَّهِ) وَهُوَ قَسَمٌ لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي الْأُمُورِ الْعَظِيمَةِ وَالتَّعَجُّبِ. وَجُمْلَةٌ (إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ) (إِنْ) هِيَ الْمَخْفَفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَ(اللام) هِيَ الْفَارِقَةُ، وَ(تُرْدِينَ) مِنَ الْإِرْدَاءِ وَهُوَ الْإِهْلَاكُ؛ أَي: وَاللَّهِ لَقَدْ قَارَبْتَ أَنْ تَهْلِكُنِي بِشَبَهَاتِكَ وَضَلَالِكَ.

يلحق ابن تيمية على (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي) بأن الفضل في النجاة محض فضل وتوفيق وإعانة من الله لا بذكاء العبد وحيلته، فلولا لطف الله وتثيبتة لكنت معك الآن (مِنَ الْمُحْضَرِينَ) المُحْضَرُ: اسم مفعول يفيد الجلب بالقهر والعنوة إلى عذاب النار.

(أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ، إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ)، بلاغة: الاستفهام هنا استفهام تلذذ وتأکید للنعمه الخالده. وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ عَرَفَهُ إِبَاهُ لَمَا عَرَفَهُ، لَقَدْ تَغَيَّرَ حَبْرُهُ وَسَبَّرَهُ.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60) * لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)، بلاغة: (إِنَّ هَذَا لَهُوَ) تركيب يعج بالتوكيد؛ "إِنَّ"، واسم الإشارة، وضمير الفصل "هو"، واللام

المزحلقة؛ إشارة إلى أن كل فوز في الدنيا هو فوز زائف، وأن هذا النعيم هو وحده الحقيقي.

تقديم شبه الجملة «لِمِثْلِ هَذَا» يفيد الحصر والأهمية؛ أي لا تعملوا لدنيا فانية أو مناصب زائلة، بل لمثل هذا النعيم الخالد والنجاة من النيران فلتتوجه الهمم والطاقات ويسعى الساعون (الفاء لام الأمر المفيدة للحث والتحفيز الاستباقي).

* (أَذَلِّكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (62) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (63) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (64) طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (65) فَإِنَّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (68) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (70) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (72) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (74) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (75) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (77) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (78) سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (80) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (81) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ (82)

* (أَذَلِّكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ): يبدأ هذا الدرس باستمرار الحوار الكوني بمقارنة حاسمة لتزلزل الوجدان. الاستفهام هنا تقريرى توبيخي؛ وكلمة «نُزُلًا» تعني ما يُهيأ للضيف أول قدومه من كرامة وضيافة. فكيف إذا كان أول قدوم أهل الجنة الفواكه والإكرام والشراب المعين، وأول قدوم أهل النار شجرة الزقوم المريرة الزفرة؟ هكذا تكتمل اللوحة البيانية لتترك السامع والتدبر أمام خيار مصيري لا يحتمل التردد.

وتستمر السورة الكريمة في إبراز ثنائية المصير (النعيم والشقاء)، لكنها تنتقل هنا من الموازنة الحوارية إلى المشاهد الحية الحارة لشجرة الزقوم؛ لتزلزل كبرياء المشركين، ثم تنعطف عطفاً سياقياً بديعاً نحو التاريخ البشري وقصص الأنبياء (مبتدئة بنوح عليه السلام) كبرهان واقعي مشهود على صدق الوعد والوعود.

المشهد الأول: بؤس الضيافة الجحيمية - شجرة الزقوم: (أَذَلِّكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ)؛ بلاغة: الاستفهام هنا إنكاري تقريرى تهكمي. وكلمة (نُزُلًا) مأخوذة من النُّزْل (وهو ما يُهيأ للضيف القادم من طعام وكرامة)، وإعرابها تمييز منصوب.

يذكر ابن عاشور - رحمه الله- أن اسم الإشارة «ذَلِكَ» يعود على الرزق المعلوم والفواكه المذكورة في حق المؤمنين. واستعمال التهكم بإطلاق لفظ "النزل" على الزقوم هو من باب المشاكلة والمقابلة لزيادة حسرتهم؛ إن النار ترحب بساكنيها بهذه الشجرة الملعونة!. (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا

كَبِيرًا) [الإسراء:60]. فقد أجمع جمهور المفسرين وعلماء التأويل على أن الشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم.

قال البيضاوي: ولعنها في القرآن لعن طاعميها وصفت به على المجاز للمبالغة، أو وصفها بأنها في أصل الجحيم فإنه أبعد مكان من الرحمة أو بأنها مكروهة مؤذية من قولهم طعام ملعون لما كان ضارا. قال جمهور المفسرين: وهي شجرة الزقوم، والمراد بلعنها لعن أكلها؛ كما قال سبحانه: إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ {الدخان: 43-44} وقال الزجاج: إن العرب تقول لكل طعام مكروه ملعون .

ومن ترحيبها بهم قول الله تعالى: (إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا) [الفرقان:12].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: اشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب، أكل بعصي بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير [1].

* (إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ): «فِتْنَةٌ» هنا تأتي بمعنى الاختبار والابتلاء والضللال الذي وقعوا فيه. يوضح سيد قطب في "الظلال" أبعاد هذه الفتنة؛ لما نزلت الآية، سخر أبو جهل ومشركو قريش قائلين: "يزعم محمد أن النار تحرق الحجارة ثم يقول تنبت فيها شجرة! والزقوم عندنا هو التمر بالزبد!"، فكانت الشجرة فتنة لعقولهم المادية القاصرة التي قاست الغيب على الشهادة. ويوضح البقاعي أن التعبير بـ «جَعَلْنَاهَا» بفعل العظمة يدل على خلقها بنظام خاص يخالف نواميس شجر الدنيا.

(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ)، بلاغة ونحواً: جملة مؤكدة بـ "إن"، وجملة «تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ» في محل رفع صفة لـ "شجرة".

يجيب شيخ الإسلام ابن تيمية هنا على شبهة المشركين عقلياً وعقدياً: إن الذي جعل السمندل يعيش في النار – أو تخرج منه النار-، وجعل الملائكة (الزبانية) لا تؤذيهم النار، قادر على خلق شجرة نبتتها في أصل الجحيم (أي قعرها وقاعدتها) وتتغذى بلهبها، فقوانين الآخرة مباينة تماماً لقوانين الدنيا.

(طَلَعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ): هذا التشبيه من الأسرار البلاغية الباهرة للقرآن. «طَلَعُهَا» (ثمرها أول ما يخرج). شَبَّهَهُ بـ «رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» مع أن أحداً من البشر لم ير رأس شيطان!

يقول ابن القيم وجمهور البلاغيين: هذا "تشبيه وهمي متخيل" استقر في النفس الإنسانية قبحة البالغ. فالنفس تملك صورة ذهنية كامنة بأن الشيطان هو قمة القبح

1 - أخرجه البخاري (3260)، ومسلم. (617)

والشر والوحشية، فجاء التشبيه بما استقر في الوهم والوجدان من البشاعة ليكون أبلغ في إثارة القشعريرة والنفور والاشمئزاز النفسي من مجرد مشهد مادي مرئي.

(فَأَنَّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَمَالُتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ): نحواً وبلاغة: الفاء عاطفة تفيد السببية والترتيب (بشاعة المنظر لم تمنعهم من الأكل لشدة الجوع). التأكيد بـ "إِنَّ" واللام المزحلقة في «لَأَكْلُونَ» لبيان حتمية وقوع الفعل.

استخدام صيغة اسم الفاعل «لَأَكْلُونَ» و «فَمَالُتُونَ» يفيد التحقق والاستمرار. وعطف "فمالئون" بالفاء التعقيبية يصور مشهداً من الجوع الكافر والنهم الممزوج بالقهر، حتى إنهم يملأون بطونهم من هذا الثمر البشع قسراً وجبراً.

* (ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ) وبلاغة: حرف التراخي «ثُمَّ» يفيد تصاعد العذاب وترتيبه؛ فبعد غصة الأكل يأتي دور العطش الحارق. «لَشَوْبًا» (الشوب هو الخلط والمزج). و «حَمِيمٍ» (الماء المتناهي في شدة الحرارة).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى بَلْبِينَ قَدِ شَيْبَ بَمَاءٍ وَعَنْ يَمِينِهِ أَعْرَابِيٌّ وَعَنْ يَسَارِهِ أَبُو بَكْرٍ فَشَرِبَ ثُمَّ أُعْطِيَ الْأَعْرَابِيَّ وَقَالَ: الْأَيْمَنُ فَالْأَيْمَنُ [1].

المعنى أن شرابهم ليس ماءً خالصاً يبرد جوفهم، بل هو مزيج غليظ يخلط مع الزقوم ليقطع أمعاءهم؛ وتقديم الجار والمجرور «لَهُمْ عَلَيْهَا» للاهتمام والتهويل.

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِأَلَى الْجَحِيمِ)، بلاغة: تفيد «ثُمَّ» هنا تراخياً رتبيّاً وزمناً عجبياً. الكلمة تدل على أنهم كانوا يُساقون خارج قعر النار (إلى موضع الشرب من الحميم)، فإذا شربوا أعيدوا مرجوعين مقهورين إلى سقر. وجاءت جملة «لِأَلَى الْجَحِيمِ» مؤكدة باللام والمجرور لإفادة قصر المصير؛ فلا مهرب لهم ولا ملجأ خارج هذا المحبس الخالد.

المشهد الثاني: سبب الانتكاسة والضلال التاريخي: (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

تعليل جليّ لسبب سقوطهم. «أَلْفَوْا» أي وجدوا وصادفوا. والفاء في «فَهُمْ» تفيد الترتيب بلا تفكير.

بلاغة: كلمة «يُهْرَعُونَ» في سياقها هي لب البيان النفسي في الآية؛ يُهرع في بنائها لما لم يسم فاعله في لغة العرب تعني: يُساق ويسرع إسراعاً شبيهاً بإسراع المرتعد أو المجنون المُوجس خيفة، دون بصيرة أو تثبت. يحلل محمد قطب هذا بـ

1 - أخرجه الترمذي (1893) واللفظ له، وصح الألباني إسناد الترمذي، وأخرجه البخاري (5619)، ومسلم (2029) باختلاف يسير

"التبعية القطيعية العمياء"؛ حيث ألغوا عقولهم تماماً واندفعوا وراء سنن آبائهم كقطيع يركض خلف حنقه.

* (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (71) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ (72) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ)

نحواً وبلاغة: تكرر صيغة القسم والتوكيد بـ «وَلَقَدْ» لربط الحاضر بالماضي وتثبيت السنن الكونية. واستخدام اسم المفعول «الْمُنذِرِينَ» (بفتح الذال) في قوله تعالى (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ): لبيان أن الحجة قامت عليهم بالإرسال والبيان، ولم يهلكوا إلا بعد الإنذار.

الآيات في سياقها تفتح نافذة العبرة التاريخية (القصص)؛ لتسلية الرسول ﷺ وتخفيف عبء التكذيب عنه؛ فـ «أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ» ضلوا كذلك، لكن الله أرسل فيهم منذرين، والنتيجة الحتمية هي الهلاك. ثم يأتي الاستثناء بـ «إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ» لتأكيد النجاة المستمرة لأهل الحق المخلصين في كل زمان ومكان كمحور تدور عليه سنن النصر.

المشهد الثالث: مطلع القصص القرآني - قصة نوح عليه السلام: * (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ:

بلاغة: انتقال بديع ومباغت من التعميم التاريخي إلى التفصيل والتمثيل المذهل. قَسَمَ بـ «وَلَقَدْ».

ونسب النداء لذاته العلية (نا) سياق التعظيم «نَادَانَا» لبيان القرب وعظم الالتجاء، والفاء في «فَلَنِعْمَ» تفيد السرعة والسببية، ودخول لام القسم على أسلوب المدح «نِعْمَ» صيغ بصيغة الجمع لبيان الجلال والقدرة المطلقة؛

يقول البقاعي: "لما تناهى كرب نوح، نادى إلهاً قادراً مجيباً، فكانت إجابة الله له موازية لعظمة الربوبية وكرمها".

* (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) دلالة اللفظ وسياقه: التعبير بـ «وَنَجَّيْنَاهُ» بالتشديد يقتضي المبالغة والإنقاذ من هول بالغ الشدة، ووصف الطوفان بـ «الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» لتحويل الخطب؛ حيث لم يكن مجرد غرق عادي بل دمار عام للأرض استدعى تدمير كل مظاهر الحياة غير المؤمنة.

* (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ)، نحواً وبلاغة: «هُمُ» هنا ضمير فصل يفيد القصر والحصار، و «الْبَاقِينَ» معرفة بأل الاستغراقية؛ أي انحصار البقاء البشري التاريخي بعد الطوفان في نسل نوح عليه السلام (سام وحام ويافت)، فكل البشرية الحالية ترجع إليه، ولهذا يُسمى نوح بـ "آدم الثاني".

* (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ)، بلاغة وسياقاً: «وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ» أي أبقينا له ذكراً حسناً وثناءً عاطراً في الأمم التي جاءت بعده (في الآخرين).

ثم يأتي هذا الثناء مفسراً في الجملة الاسمية المستأنفة الثابتة والمؤكددة بالتنكير لتفخيم السلام: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ»؛ تذوق ابن القيم هنا لطيفة بديعة؛ حيث جعل الله نوحاً حياً بذكر السلام عليه في كل العوالم (الملائكة، الإنس، الجن، السير التاريخية)، وهو جزاء معنوي عظيم باقٍ ببقاء السماوات والأرض.

* (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)، نحواً ومقاصد: الإتيان بـ "إن" التعليلية في الموضعين. «إِنَّا كَذَلِكَ» الإشارة بـ "كذلك" (كاف التشبيه وذا الإشارية) لتعظيم رتبة الجزاء المذكور؛ أي مثل هذا النصر والثناء العاطر نجزي به كل من أحسن عمله.

وقد كان الصحابة أحياناً يسألون النبي صلى الله عليه وسلم إن نزل فضل أهلهم خاصة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعِرْفَاتٍ وَقَدْ كَادَتْ الشَّمْسُ أَنْ تَغْرِبَ فَقَالَ يَا بِلَالُ أَنْصِتِ النَّاسَ فَقَالَ بِلَالٌ أَنْصِتُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانصتِ النَّاسُ فَقَالَ مَعَاشِرَ النَّاسِ أَتَانِي جَبْرِيْلُ أَنْفًا وَأَقْرَأَنِي مِنْ رَبِّي السَّلَامَ وَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفَرَ لِأَهْلِ عِرْفَاتٍ وَأَهْلِ الْمَشْعَرِ وَضَمَّنَ عَنْهُمْ التَّيْبَعَاتِ فَقَامَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا لَنَا خَاصَةً قَالَ هَذَا لَكُمْ وَلَمَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ عَمْرٌ كَثُرَ وَاللَّهِ خَيْرٌ اللَّهُ وَطَابَ [1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أَهَلُّنَا أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَجِّ خَالِصًا لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ فَقَدِمْنَا مَكَّةَ صُبْحَ رَابِعَةٍ مَضَتْ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ فَأَمَرَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَحِلَّ قَالَ: (أَجْلُوا وَاجْعَلُوهَا عَمْرَةً) فبَلَّغَهُ عَنَّا أَنَّا نَقُولُ: لَمَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِرْفَةَ إِلَّا خَمْسًا أَمَرْنَا أَنْ نَحِلَّ نَرُوحُ إِلَى مَنَى وَمَذَاكِيرُنَا نَقْطُرُ مِنَ الْمَنَى فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا فَقَالَ: (قَدْ بَلَّغَنِي الَّذِي قُلْتُمْ وَإِنِّي لِأَبْرُكُم وَأَتَقَاكُم وَلَوْلَا الْهَدْيُ لَحَلَلْتُ وَلَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ) قَالَ: وَقَدِمَ عَلَيَّ مِنَ الْيَمَنِ فَقَالَ: (بِمِ أَهَلَّلْتِ ؟) قَالَ: بِمَا أَهَلَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (فَاهْدِ وَأَمَكْتُ حَرَامًا كَمَا أَنْتِ) قَالَ: وَقَالَ لَهُ سُرَاقَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَمْرُنَا هَذِهِ لِعَامِنَا أَمْ لِلأَبْدِ ؟ قَالَ: فَقَالَ: (بَلْ لِلأَبْدِ) [2].

-
- 1- أخرجه ابن المبارك كما في ((الترغيب والترهيب)) للمنذري (131/2)، والعقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (196/2) باختلاف يسير، قال في الدرر السنية: إن ثبت سنده إلى عبد الله بن المبارك فهو على شرط الصحيح وله شاهد من وجه آخر مرسل رجاله ثقات ولكنه ليس بتمامه.
 - 2- أخرجه ابن حبان في صحيحه (3791)، وهذا لفظه، وأخرجه البخاري (7367)، ومسلم (1216) باختلاف يسير

وفي قوله تعالى: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) تعليل أعمق للإحسان: مما يدل على أن ذروة الإحسان وأساسه الثابت هو "الإيمان والعبودية" الخالصة لله؛ وفي إضافة العباد إلى ضمير العظمة «عِبَادِنَا» أعلى درجات التشريف والاصطفاء لنوح عليه السلام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعَثِ. قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ [1].

* (ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ)، روعة الختام السردي البلاغي: تأتي «ثُمَّ» للتراخي الرتبي الفاصل بين مشهد التكريم والنجاة للمؤمنين وبين مصير الطغاة. وبكل إيجاز واقتدار بكلمتين اثنتين فقط: «أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ» أسدل الستار على المكذبين، ليعود السياق في الأذهان ويجيب عملياً على السؤال المحوري في مطلع المقطع: «أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ»؟ النجاة وإبقاء الذكر الطيب هو النزل الكريم، والإغراق والزقوم هو مآل الظالمين.

* (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ (83) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (84) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (85) أَنْفَكَ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (86) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (87) فَانظُرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (88) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (89) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (90) فَرَاغَ إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (91) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (92) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ (93) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ (94) قَالَ أتعْبُدُونَ مَا تَنَحُّتُونَ (95) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (96) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ (98) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْأَخْرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (112) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِنَ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (113))

1- أخرجه البخاري (50) واللفظ له، ومسلم (9)

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة الصافات تمثل واحدة من أروع الملاحم الإيمانية في القرآن الكريم، وتكشف عن معالم "المدرسة الإبراهيمية" في التوحيد، اليقين، والابتلاء.

* (وَإِنَّ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ)، اللغة والنحو: الواو استئنافية أو عاطفة لربط القصة بما قبلها (قصة نوح عليه السلام). (مِنْ شَيْعَتِهِ) جار ومجرور في محل رفع خبر "إِنَّ" المقدم. الهاء تعود على نوح. (لِإِبْرَاهِيمَ) اللام هي المرحلة تفيد التوكيد، وإبراهيم اسم "إِنَّ" المؤخر منصوب. والشيعه في اللسان: الأتباع والأنصار الذين يمشون على ذات المنهج بالطوع والولاء.

البلاغة والسياق: التقديم والتأخير هنا يُبرز شرف التبعية؛ فتقديم الجار والمجرور (مِنْ شَيْعَتِهِ) يلفت الانتباه إلى وحدة الرابطة العقائدية بين الأنبياء رغم تباعد الأزمان.

المقاصد والتأمل: يذكر البقاعي في نظم الدرر أن الربط بين نوح وإبراهيم يوضح أن الحق لا يتجزأ، وأن الأنبياء يتوارثون المنهج كإبراً عن كابر. ويشير ابن عاشور إلى أن لفظ "شيعته" يفيد تمام المأخذ والموافقة في أصول الدين والتوحيد، كان إبراهيم امتداداً مباركاً لنوح - عليها السلام - في مقارعة الوثنية.

* (إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبِ سَلِيمٍ)، اللغة والنحو: (إِذْ) ظرف زمان متعلق بـ "إبراهيم" أو بفعل محذوف تقديره "اذكر". (بِقَلْبِ سَلِيمٍ) الباء للمصاحبة والملابسة، والسليم: الصفة المشبهة من السلامة، أي الخالي من العيوب، الشك، والشرك.

البلاغة: تنكير "قلب" و"سليم" للتعظيم الشديد. والتعبير بـ (جَاءَ رَبُّهُ) فيه تصوير بديع لحركة الضمير؛ فالإقبال على الله ليس حركة أبدان بل حركة قلوب.

يقف ابن القيم - رحمه الله - في (إغاثة اللهفان) طويلاً عند "القلب السليم"، فيقول هو: "الذي سَلِمَ من الشرك، والغل، والفساد، والهوى، فتمحض للعبودية". أما سيد قطب فيرى أن سر نجاح إبراهيم في كل المعارك اللاحقة يبدأ من هنا؛ من هذه الطمأنينة الباطنية والسلام الداخلي الذي يجعله يواجه مجتمعاً كاملاً بقلب لا يرتجف.

ويقول شيخه ابن تيمية - رحمه الله -: وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ دَعَوْا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ أَوْلَى بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعِبَادَتُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِمَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ. فَأَصْلُ عِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ: هُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَالْعَمَلُ بِهِ؛ وَذَلِكَ فَطْرِيٌّ كَمَا قَدْ قَرَّرْتَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ فِي مَوْضِعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ وَبَيَّنْتُ أَنَّ أَصْلَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ فَطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ وَأَنَّهُ أَشَدُّ رُسُوحًا فِي النَّفُوسِ مِنْ مَبْدَأِ الْعِلْمِ الرَّيَاضِيِّ كَقَوْلِنَا: إِنَّ الْوَاحِدَ نِصْفَ الْإِثْنَيْنِ وَمَبْدَأُ الْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ [1].

1- انظر ابن تيمية: مجموع الفتاوى (ج2/ص15)، وكرر ذلك كثيرا في مواضع أخرى.

* (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ)، اللغة والنحو: (إِذْ) بدل من "إِذ" الأولى (بدل اشتمال أو بدل بيان). (مَاذَا) اسم استفهام، إما أن تكون "ما" استفهامية و"ذا" موصولة، أو كتلة واحدة في محل نصب مفعول به مقدم لـ "تعبدون".

البلاغة: الاستفهام هنا ليس لطلب الفهم (فهو يعلم ماذا يعبدون)، بل هو استفهام توبيخي، إنكاري، وتقليلي من شأن هذه المعبودات. وفيه براعة استهلال للمواجهة.

المقاصد: إعلان البراءة والمفاصلة، وبدء الدعوة بالأقربين (الأب) ثم المجتمع (القوم)، وهو الترتيب الدعوي المنطقي لحشد الرأي أو قطع الحجة.

كما بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم بدعوة زوجته خديجة رضي الله عنها، وأهل بيته، ثم نزل عليه (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) [الشعراء:214]. قبل أن يؤمر - صلى الله عليه وسلم- بالبلاغ العام.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، فقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا- اسْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ؛ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِّينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا [1].

* (أَنْفَكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ)، اللغة والنحو: الهمزة للاستفهام الإنكاري. (أَنْفَكَا) مفعول لأجله مقدم، أو مفعول به لـ "تريدون"، و(آلِهَةً) بدل منه. والإفك: أسوأ الكذب وأشدّه قلباً للحقائق.

البلاغة: تقديم (أَنْفَكَا آلِهَةً) على الفعل (تُرِيدُونَ) يفيد الاهتمام والتعجب والإنكار الفوري. حيث صدر الكلام بوصف ألتهم بالكذب والافتراء قبل ذكر إرادتهم لها، تنفيراً للسامع.

* (فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)، اللغة والنحو: الفاء عاطفة تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها بسببية مبرهنة. (مَا) اسم استفهام في محل رفع مبتدأ، و(ظَنُّكُمْ) خبره.

البلاغة والسياق: استفهام تهكمي توبيخي يحمل وراءه تهديداً مبطناً. ما الذي يمنعكم من عبادة من يملك ملكوت كل شيء؟ هل تظنون أنه يعجز عن عقابكم؟

المقاصد والتأمل: يشير محمد قطب في ظلال دراساته العقائدية أن هذه الآية تمثل "محاكمة للمنطق الجاهلي"؛ الجاهلية تستهين بمقام الألوهية وتجعل الخالق

مساوياً للمخلوق، فجاء السؤال ليزلزل أمنهم النفسي الزائف ويسألهم عن تصورهم لرب العالمين إذا لاقوه.

ويقول - رحمه الله -: ولم تكن مشكلة البشرية أنهم لا يعرفون وجود الله ولا يعبدونه بصورة من الصور، وإنما مشكلتهم أنهم لا يعرفونه المعرفة الحقة، ومن ثم لا يعبدونه كما تنبغي له العبادة سبحانه. (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ^٢)، (كَلَّا لَمَّا يُفْضِ مَا أَمْرَهُ) [1].

* (فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ)، اللغة والنحو: (نَظْرَةً) مفعول مطلق مؤكد للفعل. (فِي النُّجُومِ) متعلق بـ "نظر".

البلاغة والسياق: الفاء تفيد التعقيب المباشر، والنظر في النجوم كان من عادات قومه (أهل بابل) الذين يتعاطون التنجيم وربط الحوادث الأرضية بالأفلاك، فنظر بطريقتهم ليفهموا عنه بلغتهم ومقاييسهم.

* (فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ)، اللغة والنحو: الجملة مؤكدة بـ (إِنِّي) لإزالة شكهم وإقناعهم بظاهره. (سَقِيمٌ) خبر إن، وهو صفة مشبهة تفيد الثبوت النسبي أو الاستمرار.

البلاغة والسياق (المعاريض): هنا ما يسمى في البلاغة بالتعريض أو التورية. هو سقيم النفس هماً من كفرهم، أو سقيم بمعنى "سأسقم" مستقبلاً لأن الموت والعلل تكتب على كل حي، أو مشارف على السقم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: إِنِّي سَقِيمٌ، وَقَوْلُهُ: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ؛ فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ امْرَأَتِي يَغْلِبُنِي عَلَيْكَ، فَإِنْ سَأَلْتُكَ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكَ أُخْتِي؛ فَإِنَّكَ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرِكَ [2].

ينبه شيخ الإسلام ابن تيمية أن الأنبياء مبرؤون من الكذب المحض الذي يُقصد به الباطل، وإنما هذا من باب "المعاريض التي فيها مفسحة عن الكذب"، وهو كيد إيماني مشروع لتحقيق مصلحة هدم الأصنام، ولأجل هذا عُدَّت هذه من هفواته الشريفة يوم القيامة لشدة ورعه.

يقصد - رحمه الله - حديث أبي هريرة الطويل مرفوعاً، حينما يعتذر نوح عليه السلام عن الشفاعة في موقف يوم القيامة، ويقول: فسي نفسي نفسي، اذهبوا إلي غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله

1- انظر محمد قطب: دراسات قرائنه (؟؟؟).

2- أخرجه البخاري (3358)، ومسلم (2371).

مِنَ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَّبْتُ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ [1].

* (فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ)، اللغة والنحو: الفاء عاطفة سببية. (مُدْبِرِينَ) حال منصوبة بالياء، تؤكد معنى التولي وتزيده حساً حركياً (الإدبار: إعطاء الظهر).

البلاغة: الجمع بين التولي والإدبار يفيد السرعة التامة والنفور الشديد، إما خوفاً من عدوى سقمه، أو استعجالاً للحاق بعيدهم.

* (فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)، اللغة والنحو: (رَاغَ) فعل ماضٍ يعني مال في خفية وسرعة، وقوله: (أَلَا) أداة عرض وتحضيض، واستعمالها مع الجماد تهكم.

البلاغة: الروغان يصور الحركة الذكية المتخفية المليئة بالتخطيط. قوله (أَلَا تَأْكُلُونَ) تهكم عالي الطبقة، يسخر من عقول قومه التي تضع الطعام أمام حجارة لا تملك نفعاً ولا ضرراً.

* (مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)، اللغة والنحو: (مَا) اسم استفهام مبتدأ، و(لَكُمْ) جار ومجرور خبره. وجملة (لَا تَنْطِقُونَ) في محل نصب حال من الضمير في لكم.

البلاغة: امتداد للتهكم والسخرية الصارخة، استنطاق الجماد الميؤوس من نطقه يبرز فجاجة المشهد الوثني وعجزه التام.

قلت: وجاء في مخاطبة الجماد خطاب النبي صلى الله عليه أحداً: عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَعِدَ أَحَدًا وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمْرُ وَعَثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اثْبَتْ أَحَدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصَدِيقٌ وَشَهِيدَانِ [2].

والتزم صلى الله عليه وسلم الجذع: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كان الْمَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلِ، فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ الْمِنْبَرُ وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الْجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ الْعِشَارِ، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا فَسَكَتَتْ [3].

1- أخرجه البخاري (4712)، ومسلم (194).

2- أخرجه الترمذي (3697) واللفظ له، وأخرجه البخاري (3675) باختلاف يسير.

3- أخرجه البخاري (3585) واللفظ له، وأخرجه البيهقي (5762)، واللفظ له، والنسائي (1396)، وابن ماجه (1417)، بمعناه.

ولعله قريب من هذا المعنى في عدم الإجابة حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْقَلْبِ، فَقَالَ: وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَقِيلَ لَهُ: تَدْعُو أَمْوَاتًا؟** فقال: **مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعٍ مِنْهُمْ، وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ.** [1].

* (فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ)، اللغة والنحو: (عَلَيْهِمْ) عُدِّي الفعل بـ "على" بدلاً من "إلى" لتضمنه معنى الاستعلاء والبطش. (ضَرْبًا) مفعول مطلق لفعل محذوف (يضرب ضرباً) أو نائب مفعول مطلق، و(بِالْيَمِينِ) الباء للاستعانة، واليمين ترمز للقوة والقدرة.

البلاغة والسياق: استخدام "اليمين" هنا يفيد القوة العضلية الباطشة، كما سبق في قوله تعالى: (قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ)، كما يفيد القسم والعهد السابق الذي قطعه على نفسه (وتالله لأكيدن أصنامكم)، فجاءت الضربات محكمة، سريعة وقوية.

* (فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ)، اللغة والنحو: (يَزْفُونَ) جملة حالية من الواو في "أقبلوا"، والزفيف في اللغة: الإسراع مع مقاربة الخطى وصوت الحركة (كزفيف النعام أو العروس).

وهنا اختصر ما فصله في سورة الأنبياء: (قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ بِأَنْ يَنْطِقُونَ، قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ، أَفَلَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [الأنبياء: 59-67]، كل هذا طواه إلا قليلاً لأن إيقاع السورة هنا سريع.

البلاغة: الحركة هنا سريعة ومضطربة، تعكس صدمتهم وهلعهم العارم عندما عادوا ووجدوا آلهتهم جذاذاً.

* (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ)، اللغة والنحو: الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي. (مَا) اسم موصول مفعول به لـ "تعبدون"، وجملة (تَنْحِتُونَ) صلة الموصول.

البلاغة (الحجة العقلية المفحمة): في الآية قمة الإيجاز المفحم. العابد ينبغي أن يكون أدنى من المعبود، فكيف يكون العابد صانعاً والمعبود مصنوعاً؟ العقل يقتضي أن الصانع أفضل من المصنوع، فكيف تعبدون ما صنعت أيديكم؟

1- أخرجه البخاري (1370) واللفظ له، أخرجه مسلم (932) مطولاً باختلاف يسير

* (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)، اللغة والنحو: الواو حالية أو استئنافية. (مَا) إما مصدرية؛ فيكون التقدير: (خلقكم وعملكم)، وإما موصولة؛ والتقدير: (خلقكم والذي تعملونه من الأصنام). وكلاهما يصح.

المقاصد والتأمل: هذه الآية أصل من أصول العقيدة؛ فالله خالق العباد وخالق أفعالهم وصنائعهم (سواء فُسرَت ما موصولة أو مصدرية). الحجة هنا طردية: ما دامت الأفعال والأصنام مخلوقة لله، فالله هو المستحق الحصري للعبادة، والالتفات للمخلوق شرك وفساد في العقل.

وفي الأصول الثلاثة لمحمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - : فإذا قيل لك: من ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، وهو معبودي ليس لي معبود سواه، والدليل قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، وكل ما سوى الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم، فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته [1].

* (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْفُوهُ فِي الْجَحِيمِ)، اللغة والنحو: (ابنوا) فعل أمر مبني على حذف النون. (فألفوه) الفاء عاطفة تفيد التعقيب والترتيب؛ وبناء البنيان لغرض الإلقاء مباشرة. (في الجحيم) النار العظيمة الموقدة بشدة.

البلاغة والسياق: عندما يعجز الفكر الجاهلي عن مقارعة الحجة والمنطق، يهرب فوراً إلى لغة القوة والبطش والمصادرة اللوجستية (ابنوا له بنياناً). لم يكتفوا بنار عادية بل أرادوا "بنياناً" يجمع حر النار ويوجه صوبه لحسم المعركة تماماً.

* (فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ)، اللغة والنحو: (كيداً) مفعول به، ونكر للتهويل والتضخيم. (الأسفلين) مفعول به ثانٍ لـ "جعلنا"، وهو اسم تفضيل يدل على غاية الدحور والذل والانهزام.

البلاغة: المقابلة بين إرادة الكيد البشري والقدرة الإلهية المطلقة. أرادوا إعلاء نارهم وإسقاط إبراهيم فيها ليكون هو الأسفل، فقلب الله النتيجة مادة ومعنى؛ فصاروا هم الأسفلين حجةً وقدرًا ومكانة، ونال إبراهيم العلو والرفعة.

* (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ)، اللغة والنحو: (ذاهبٌ) اسم فاعل يعمل عمل الفعل، يفيد الاستمرار والعزم القاطع على الهجرة. (سيهدين) السين للمستقبل القريب المحقق، والنون للوقاية، والياء المحذوفة للتخفيف ورأس الآية هي ياء المتكلم (سيهديني).

البلاغة والسياق: هجرة المكان بعد انتصار العقيدة. الذهاب "إلى الرب" تعبير يحمل غاية التجرد والتوكل، فالوجهة ليست جغرافية بقدر ما هي روحية فراراً بالدين.

1- انظر: محمد بن عبد الوهاب: الأصول الثلاثة.

* (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ)، اللغة والنحو: (رَبِّ) منادى بحذف حرف النداء ويا المتكلم، والتقدير "يا ربي"، يفيد القرب المناجاتي. (مِنَ الصَّالِحِينَ) جار ومجرور في محل نصب مفعول به ثانٍ لـ "هب" (أي ولداً من الصالحين)، أو صفة لمحذوف. توجيه المقصد البشري الفطري لطلب الذرية بأن تكون غايتها "الصلاح" لخدمة المنهج والدين، وليس مجرد امتداد بيولوجي.

* (فَبَشِّرْهُنَّ بِبُحْبُوحِ أَوْلَادِهِنَّ)، اللغة والنحو: الفاء تفيد سرعة الاستجابة الإلهية. (بُحْبُوحِ) الباء للملابسة، والغلام: الصبي من حين يولد إلى أن يراهق. (حَلِيمِ) صفة مشبهة تفيد رسوخ صفة الحلم والعقل والصبر فيه مستقبلاً.

ويفهم من الآية وجوب التأسي بإبراهيم وأنبياؤه الله ورسله عموماً عليهم السلام في لزوم الدعاء، لأنه سبحانه يحب من عباده الدعاء، ففي حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: 60] [1].

ولأنه ليس بعد الدعاء إلا الإجابة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من مسلمٍ يدعو، ليسَ بِإِثْمٍ وَلَا بِقَطِيعَةٍ رَجِمَ إِلَّا أُعْطَاهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا قَالَ: إِذَا نُكِّثَ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ [2].

البلاغة: البشارة الإلهية اشتملت على ثلاث نعم: أنه ذكر (غلام)، وأنه سيعيش حتى يكبر ويكون غلاماً يافعاً، وأنه سيتصف بأشرف الصفات النفسية وهي (الحلم)، وهذه الصفة بالذات ستكون مفتاح المشهد القادم في الذبح.

* (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى...)

اللغة والنحو: (بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ) السعي: مصدر وهو مفعول به، أي أطاق العمل والحركة مع أبيه ومساعدته. (يَا بُنَيَّ) تصغير تشفيق وتحبيب. (أَرَى) فعل مضارع يفيد تكرار الرؤيا واستمرارها. (فَانظُرْ مَاذَا تَرَى) فعل أمر من النظر العقلي والروحي، وليس البصري.

1- أخرجه أبو داود (479)، والترمذي (2969)، وابن ماجه (3828)، وقال المنذري: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما.

2- أخرجه أحمد (11133)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (710) واللفظ له، وأبو يعلى (1019)، وصح الألباني إسناده.

البلاغة: جاء التعبير بالمضارع (أذبحك) ولم يقل "ذبحتك" استحضاراً للمشهد الفظيع في الذهن وتأكيذاً للاستسلام.

أشرك ابنه في الأمر (فانظر ماذا ترى) ليس تردداً في إنفاذ أمر الله، وإنما رغبة في أن ينال الابن أجر الطاعة والاستسلام طوعاً لا كرهاً.

رد إسماعيل جاء في غاية الأدب والربانية: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ) لم يقل "اذبحني"، بل علق الأمر بالأمر الإلهي طاعةً للمصدر، ثم استثنى بمشيئة الله متواضعاً (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) ولم يقل "سأصبر" اعتراضاً بنفسه، بل تبرأ من حوله وقوته مستعيناً بالمشيئة.

* (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)، اللغة والنحو: (أَسْلَمَا) الألف للتثنية، أي استسلما وانقادا لأمر الله. (تَلَّهُ) صرعه ووضع على الأرض. (لِلْجَبِينِ) الجبين هو أحد جانبي الجبهة (للإنسان جبينان يكتنفان الجبهة)، واللام هنا بمعنى "على" أو للعلقة والالتصاق.

البلاغة وسيكولوجية الآية: جواب "لما" محذوف تضخيماً وتهويلاً للمشهد، والتقدير: "فلما أسلما وتله للجبين.. حدث ما لا تحيط به العبارة من جلال ورحمة". اللفظ (تَلَّهُ) لفظ خشن قوي حركياً يصور حسم العاطفة الأبوية تماماً لوجه الله، فلم يعد هناك تردد؛ السكين كادت أن تباشر الجلد.

(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)، اللغة والنحو: (أَنْ) مفسرة أو مخففة من الثقيلة. (قَدْ) حرف تحقيق لدخولها على الفعل الماضي (صَدَّقْتَ). وجملة (إِنَّا كَذَلِكَ...) تعليلية للجزاء الرباني.

البلاغة والمقاصد: نودي باسمه مجرداً لعظم الموقف وتثبيتاً لقلبه. ومعنى (صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) أي عملت عمل المصدق ووطنت نفسك والابن تماماً، فالابتلاء يقع على العزم والقلب أولاً، فإذا نجح القلب ارتفع البلاء مادة وعيناً.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ)، اللغة والنحو: الجملة مؤكدة بـ (إِنَّ)، واسم الإشارة (هَذَا)، واللام المزحلقة، وضمير الفصل (هُوَ) الذي يفيد الحصر والتوكيد. (الْمُبِينُ) الصفة الواضحة الصارخة.

البلاغة والسياق: تراكم المؤكدات البلاغية لبيان أن هذا الاختبار فاق حدود الطاقات البشرية المعتادة؛ أن يذبح الأب الشيخ ابنه الوحيد البار بيده! لا يوجد ما هو أبين وأقسى من هذا بلاءً.

* (وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ)، اللغة والنحو: (فَدَيْنَاهُ) الفداء: جعل شيء مكان شيء لدفع الأذى عنه. (بِذَبْحٍ) بكسر الهمزة: ما يُعد للذبح (الأضحية)، أما بفتحها فهو الفعل نفسه. (عَظِيمٍ) صفة للذبح؛ لعظم قدره عند الله لأنه فداء لنبي، أو لعظم جثته وبركته.

المقاصد: تأسيس سنّة الأضحية والفداء، وتحويل المأساة إلى عيد يحتفل به الموحدون إلى قيام الساعة، وهو درس في تحول المحن إلى منح عظمي إذا استسلم العبد لربه.

وقد أخذ من هذا المعبرون أنه من رأى في المنام أنه يذبح ابنه فإنه يسأل هل عق عنه أو لا؟، فإن لم يعق فهو ذاك، أي عليه أن يعق عنه.

* (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)،

اللغة والبلاغة والسياق: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ): أَبَقْنَا لَهُ ثَنَاءً حَسَنًا وَذَكَرًا جَمِيلًا مَمْتَدًّا فِي الْأُمَمِ الَّتِي تَأْتِي بَعْدَهُ.

* (سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ): جملة اسمية تفيد الثبوت والدوام، وهي حكاية للثناء الذي تركه الله له.

* (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ): تعليل وتشريف؛ فصفة "العبودية" المقرونة بـ "نا" الدالة على العظمة هي أرفع الأوسمة التي ينالها الإنسان.

* (وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ)

اللغة والنحو: (نَبِيًّا) حال مقدر (أي مقدرًا نبوته في المستقبل) أو حال مقارنة وقت البشارة. (مُحْسِنٌ) مبتدأ مؤخر مرفوع، و(ظَالِمٌ) معطوف عليه، والجار والمجرور (وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا) خبر مقدم.

البلاغة: تقديم البشارة بإسحاق هنا بعد قصة الذبح دليل قاطع وسياقي عند محققي المفسرين (كابن تيمية وابن القيم وابن عاشور) على أن الذبيح هو إسماعيل؛ إذ لا يستقيم سياقاً أن يُبشّر بإسحاق نبياً سيعيش ويولد له يعقوب، ثم يُؤمر بذبحه وهو طفل! البشارة بإسحاق جاءت مكافأة ثانية لإبراهيم بعد نجاحه في ابتلاء ذبح إسماعيل.

المقاصد والعدالة الإلهية: ختمت الآيات بـ (وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ) لتقرير قاعدة قرآنية تربوية صارمة: النسب لا يغني من الحق شيئاً. بركة الآباء لا تنتقل ألياً للأبناء بالوراثة الجينية بل بالعمل والصلاح؛ فمن ذرية هذين النبيين العظيمين الصالح المحسن، ومنهم الكافر الظالم لنفسه وضوحاً، لتقطع الآية الطريق على أي ادعاء بالاصطفاء العرقي المحض (كادعاء اليهود والنصارى) وتجعل الميزان الحقيقي هو التوحيد والعمل الصالح.

قال الناظم:

آل النبي هُم أنصار ملته ** من الأعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله إلا أقاربه ** صَلَّى المصلي على الطاعي أبي لهب
* (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (114) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ
الْعَظِيمِ (115) وَنَصَرْنَا هُم فَكَانُوا هُم الْغَالِبِينَ (116) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ
الْمُسْتَبِينَ (117) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (118) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي
الْآخِرِينَ (119) سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (120) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (121) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (122) وَإِنَّ الْيَأْسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَالِقِينَ (125) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (126) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
(127) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (128) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (129) سَلَامٌ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ (130) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (131) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ (132) وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ
أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِالنَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ (138) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ
الْمُسْتَجِيبِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) ﴿٥٠﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ
سَقِيمٌ (145) وَأَنْبِئْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ (147) فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس قبل الأخير من سورة الصافات تمثل سياقاً
متتابعاً من قصص الأنبياء (موسى وهارون، إيلاس، لوط، يونس)، وتأتي ضمن
المقصد العام للسورة وهو: تقرير التوحيد، وإثبات الوصل بين السماء والأرض عبر
الوحي، وبيان عاقبة المكذبين وسنة نصر المرسلين.

أولاً: قصة موسى وهارون عليهما السلام: والمقصد: الامتنان بالنصر الشامل
(النفسي، والمادي، والتشريعي) على الطغيان المتمثل في فرعون وملئه.

* (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ: نحوياً: الجملة مصدرية بـ (الواو) العاطفة
لربط القصة بما قبلها (قصة إبراهيم وإسحاق). واللام موطئة للقسم، و(قد) حرف
تحقيق، وفعل العظمة مَنَّا دال على جلالة المنة وعظمتها.

البلاغة والسياق: تقديم موسى على هارون لأنه الأصل في الرسالة والأقوى
في المواجهة. لم يذكر نوع المنة هنا لأن في إبهامها تعظيماً، لتفصلها الآيات التالية.

إشراقة تفسيرية: يرى البقاعي أن هذا الانتقال هو لمناسبة قصة إبراهيم في
إهلاك المكذبين وإنجاء الصادقين. و(في ظلال القرآن) يرى سيد قطب، المنة هنا هي
"أصل النعمة" بانتشالهما من الاستضعاف إلى مقام النبوة القيادية.

* (وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)، نحويًا: عطف قَوْمَهُمَا على الضمير في (نَجَّيْنَاهُمَا) يوضح أن نجاة القائدين مرتبطة بنجاة الأمة؛ فالرسالة ليست خلاصاً فردياً.

البلاغة: وصف الكرب بـ (العظيم) تهويل لما كانوا فيه من تذبيح الأبناء واستحياء النساء والعبودية لفرعون. وتكثير "كرب" للتعظيم الشديد.

إشراقة تفسيرية: يذكر ابن عاشور أن الكرب العظيم هو استعباد فرعون لبني إسرائيل. ويؤكد محمد قطب في منطلقاته النفسية أن "الكرب العظيم" يزلزل القلوب، والنجاة منه تولد ولادة جديدة للأمة.

* (وَنَصَرْنَا هُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ)، البلاغة: التفت السياق من التثنية (نَجَّيْنَاهُمَا) إلى الجمع (وَنَصَرْنَا هُمْ / فَكَانُوا) ليشمل الأمة (بني إسرائيل) مع نبييها، لأن الغلبة كانت جنداً للهيئة الاجتماعية المؤمنة.

كما أذ صيغة القصر بضمير الفصل (هُم) والتعريف بـ (الغالبين) تفيد قصر الغلبة الحقيقية والمستقرة عليهم؛ ففرعون وجيشه غلبوا ظاهراً لفترة، لكن العقاب حُسمت للمؤمنين.

إشراقة تفسيرية: يستلهم ابن تيمية – رحمه الله – من مثل هذه الآيات فكرة أن النصر مشروط بالإيمان، فما داموا مع موسى وهارون، جرت عليهم سنة الغلبة.

* (وَأَتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)، عاد الضمير للتثنية (وَأَتَيْنَاهُمَا) لأن التلقي والتشريع يختص به الأنبياء لا أقوامهم.

البلاغة: (المُسْتَبِينَ) اسم فاعل من "استبان" وهو أبلغ من "المُبِين"؛ لأن زيادة المبنى فيها زيادة المعنى، فهو الذي يتبين في نفسه ويُبِين غيره، كأنه يطلب البيان فيظهره بأعلى جلاء (وهي التوراة).

إشراقة تفسيرية: يرى ابن القيم – رحمه الله – أن وصف الكتاب بالمستبين دليل على أن أصول الهداية لا غموض فيها، بل هي بيّنة واضحة تلائم الفطرة الإنسانية.

* (وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) نحويًا: عُدِّي الفعل (هَدَيْنَاهُمَا) إلى مفعولين بنفسه دون حرف جر (إلى) ليدل على التمكين التام في الهداية؛ فكأنهما جُعلا داخل الصراط مباشرة.

البلاغة: استعارة "الصراط المستقيم" للشرائع والعقائد الحقة، فوصفه بالاستقامة لنفي العوج والاضطراب النفسي والفكري.

* (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَيْنَ * سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)

الروابط السياقية والمقاصدية: هذا هو "التعقيب الختامي المشترك" في هذه السورة لقصص الأنبياء.

التحليل البلاغي والنحوي: (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا): أي أبقينا لهما ثناءً حسناً ودعاءً مستمرًا.

(سَلَامٌ): مبتدأ ساوغ الابتداء به ما فيه من معنى الدعاء والتعظيم، وجملة السلام هي حكاية لهذا الثناء المتروك.

* (إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ): تعليل للجزاء والدلالة على اطراد السُّنَّة؛ فكل من أحسن فله من النصر والثناء حظ بحسب إحسانه.

وقد استفاد النبي صلى الله عليه وسلم هذا التعميم في شمول الخير، فكان يدعو لزوجته ما يدعو به لأُمَّته:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما رأيت من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَيْبَ النَّفْسِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهُ لِي قَالَ اللهُ لِي قَالَ اللهُ لِي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَائِشَةَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهَا وَمَا تَأَخَّرَ وَمَا أَسْرَتْ وَمَا أَعْلَنْتَ فَضَحِكْتُ عَائِشَةَ حَتَّى سَقَطَ رَأْسُهَا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الضَّحِكِ فَقَالَ أَيْسُرُكَ دُعَائِي فَقَالَتْ وَمَالِي لَا يَسُرُّنِي دُعَاؤُكَ فَقَالَ اللهُ إِنَّهَا لَدَعَوْتِي لِأُمَّتِي فِي كُلِّ صَلَاةٍ [1].

* (إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ): ترقى في المدح؛ فالإحسان ثمرة، والعبودية المؤمنة الخالصة هي الأصل والجذر، وهذا ما يركز عليه ابن تيمية دائماً: أن مقام العبودية هو أعلى المقامات .

ثانياً: قصة إلياس عليه السلام: المقصد العام: مواجهة الشرك الصريح (عبادة الأصنام) وبيان تهافت المعبودات المادية أمام عظمة الخالق.

* (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) نحويًا: الجملة مؤكدة بـ (إِنَّ) و(اللام المزحلقة) لتثبيت نبوته لمن كان يشك فيها من كفار مكة أو لبيان عظمة موقعه في موكب الرسالة.

1- أخرج البزار كما في ((كشف الأستار)) للهيثمي (2658)، وابن حبان (7111) باختلاف يسير، والحاكم (6738) بنحوه، وحسن الألباني إسناده.

* (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)، البلاغة: (إِذْ) ظرف متعلق بالمرسلين أو بفعل مضمر. والاستفهام بـ (أَلَا تَتَّقُونَ) ليس للاستخبار، بل هو للحض والتحضيض والتعجب من عدم تقواهم لله مع وضوح الدلائل.

* (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) نحوياً: بَعْلًا مفعول به (وهو اسم صنمهم الشهير). (وَتَذَرُونَ) معطوف عليه، وهو مضارع لا يُستعمل ماضيه (وذر) في الفصحى إلا نادراً.

البلاغة: مقابلة شنيعة تظهر سخافة العقل المشرك: يدعون جماداً مصموماً (بَعْلًا) ويتركون الخالق المبدع تبارك وتعالى. ووصف أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ فيه مجازة لعقولهم التي تزعم أن هناك صانعين غير الله، فبين لهم أنه إن وجد من يصنع ويقدر، فالله أحسن المقدرين والصانعين على فرضية مجاراتهم، أو هو بمعنى "الموجد من العدم" على الحقيقة.

إشراقة تفسيرية: يشير ابن عاشور إلى التهكم البليغ بلفظ "بعل" الذي يعني أيضاً السيد أو الزوج، فكيف يكون الصنم سيداً خالقاً؟ (في ظلال القرآن)، يهز سيد قطب الضمير الإنساني هنا ببيان المفارقة بين عبادة الأموات (الجماد)، وترك الحي الذي لا يموت (الله) [1]..

* (اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ)، : قرأ يعقوب وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف العائش بالنصب (اللَّهُ رَبُّكُمْ) على أنه بدل من أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ أو عطف بيان. وقرأ الباقر بالرفع على الاستئناف البياني المعظم.

البلاغة وسياق المقاصد: ذكر (رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ) لإبطال الحجة التقليدية للمشركين (التقليد الأعمى للأباء)؛ وقولهم (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) [الزخرف:22]، فالله هو رب هؤلاء الآباء أنفسهم، فالحق أقدم من باطل آبائهم.

* (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)، اللسانيات والنحو: الفاء عاطفة تفيد السرعة والتعقيب، مما يدل على مبادرتهم بالتكذيب دون تفكير. (لَمُحْضَرُونَ) اسم مفعول مؤكد باللام، وفعل الإحضار في القرآن لا يُستعمل غالباً إلا في سياق العذاب والإكراه (الإحضار إلى جهنم).

1- قال في ويكيبيديا: بعل هو أحد المعبودات في بلاد الشام وآسيا الصغرى، قلت: ولعله تمثال لأحد الصالحين، فيكون امتداداً لعبادة قوم نوح عليه السلام.

ثم يعود الضمير بالإفراد في الآية الأخيرة (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) ليعيد التركيز على شخص النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: قصة لوط عليه السلام: المقصد العام: التطهير الكوني للمجتمع الذي انتكست فطرته، وتقديم المشهد الحسي لعبرة التاريخ.

* (وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ)، الاستثناء بـ إِلَّا عَجُوزًا (وهي امرأته) استثناء من الأهل؛ مما يدل على أن القرابة الحقيقية في ميزان الله هي قرابة الدين والعقيدة لا اللحم والدم. وَالْغَابِرِينَ هم الباقون في العذاب والهلاك.

إشراقة بلاغية: تأكيد النجاة بـ (أَجْمَعِينَ) يبرز عِظَمَ الْمَنَّةِ، ثم يقطع الاستثناء هذا المشهد ليعطي صدمة تشريعية تربوية: الكفر يقطع حبال الزوجية والقرابة.

إشراقة تفسيرية: يرى سيد قطب أن التعبير بـ عَجُوزًا يجردها من مقام "امرأة النبي" تكريماً للوط، ويصفها بوصف فيزيائي مادي بحت، يدل على سقوط قيمتها المعنوية.

* (ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ)، استعمال (ثُمَّ) يفيد التراخي الرتبي أو الزمني، فالإنجاء أولاً والعزل للمؤمنين، ثم يأتي الإهلاك كفعل كاسح مستأصل مصوّر بلفظ التدمير الشامل.

* (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفْلاً تَعْقُلُونَ)، الإلتفات: نقل الخطاب مباشرة من الغيب التاريخي إلى الواقع الحسي لكفار قريش؛ لأن رحلاتهم التجارية إلى الشام تمر ببقايا ديار قوم لوط (البحر الميت).

البلاغة: المقابلة بين (مُصْبِحِينَ) و(وَبِاللَّيْلِ) تدل على ديمومة المشاهدة وآيتها في كل الأوقات. والاستفهام الإنكاري التوبيخي (أَفْلاً تَعْقُلُونَ) يحث على تشغيل العقل وتحويل النظر الحسي البصري إلى نظر عقلي اعتباري.

إشراقة تفسيرية: يركز محمد قطب هنا على أهمية "إحياء القلوب"؛ فالمشركون يمشون على الأطلال بأبدانهم، لكن قلوبهم في غفلة، فالقرآن يحاول هنا كسر العادة والبلادة الفكرية.

رابعاً: قصة يونس عليه السلام: المقصد العام: درس في التربية الإلهية لنفوس الدعاة، وبيان كمال القدرة والرحمة، وثمرة التسبيح في كشف الكروب.

* (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)، تثبتت لنبوته وتأكيد لمقامه العالي برغم ما سيذكره السياق من بشريته وضيق صدره العارض.

* (إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) البلاغة: اختيار كلمة (أَبَقَ) بليغ ومذهل جداً؛ فالأبق لغةً هو "العبد الهارب من سيده". ويونس لم يهرب معصية، بل خرج مغاضباً لقومه ظناً منه أن رسالته انتهت هناك، لكن القرآن استعار هذا اللفظ (أَبَقَ) تضييقاً وتدقيقاً على الأنبياء؛ لأن مقامهم الرفيع يتطلب عدم التحرك خطوة إلا بإذن صريح من الله تبارك وتعالى، كما أن وصف الفلْكِ بـ (المَشْحُونِ) أي: المملوء، تهيئةً للبلاء التالي (ثقل السفينة).

إشراقاً تفسيرية: يستلهم ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله- من هذا موقفاً جليلاً في توبة الأنبياء؛ فالله يربي صفوته بأدق المقاييس، وحسنات الأبرار سيئات المقربين.

* (فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ): (فَسَاهَمَ) أي: قارع واشترك في القرعة لتخفيف حمل السفينة، (الْمُدْحَضِينَ) اسم مفعول من الإِدْحَاض وهو الإزالة والإزلاق، أي المغلوبين في القرعة المقذوفين في البحر.

البلاغة: استخدام الفاءات المتلاحقة نفيذ السرعة التقديرية الكونية؛ فالمقدمات قادت إلى النتائج الإلهية بلمح البصر وبلا تراخٍ.

* (فَالنَّقَمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ): (فَالنَّقَمَةُ) دلالة على الابتلاع السريع والكامل دون مضغ أو أذى؛ فالحوت مأمور وسَجَان، وليس يأكل سُبُع. (وَهُوَ مُلِيمٌ) جملة حالية، أي: فاعلٌ ما يُلام عليه في ميزان العبد الخاضع لمولاه، أو أتٍ بما يلام عليه بسبب تركه قومه دون إذن.

قال الطبري: وقوله (وَهُوَ مُلِيمٌ) يقول: وهو مكتسب اللوم، يقال: قد ألام الرجل، إذا أتى ما يُلام عليه من الأمر وإن لم يُلم، كما يقال: أصبحت مُحَمِّقاً مُعْطِشاً: أي عندك الحمق والعطش؛ ومنه قول لبيد:

سَفَهَا عَدَلْتِ وَأَمْتٌ غَيْرَ مُلِيمٍ ... وَهَدَاكَ قَبْلَ الْيَوْمِ غَيْرُ حَكِيمٍ

فأما الملموم فهو الذي يلام باللسان، ويعذل بالقول [1].

* (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ): لَوْلَا حرف امتناع لوجود؛ امتنع اللبث الطويل لوجود التسبيح.

1- انظر الطبري: جامع البيان (ج21/ص106).

البلاغة والنظم والمقاصد: (مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) تفيد أنه كان مسبحاً أكثراً في الرخاء قبل الشدة، وقيل هو تسبيحه في بطن الحوت (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: كنتُ رديف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لي: يا غلامُ - أو يا بني - ألا أعلمك كلماتٍ ينفَعُك اللهُ بهنَّ؟. فقلتُ: بلى، فقال: احفظِ اللهُ يحفظُك، احفظِ اللهُ تجدهُ أمامك، تعرَّفْ إلى اللهُ في الرخاءِ يعرفُك في الشدَّةِ، إذا سألتَ فاسألِ اللهُ، وإذا استعنتَ فاستعنْ باللهِ، فقد جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ، فلو أنَّ الخلقَ كلَّهم جميعاً أرادوا أن [ينفعوك بشيءٍ لم يقسمه اللهُ لك؛ لم يقدرُوا عليه، وإن أرادوا أن] يضرُّوك بشيءٍ لم يقضه اللهُ عليك؛ لم يقدرُوا عليه، واعمل اللهُ بالشكرِ واليقينِ، واعلم أنَّ في الصبرِ على ما تكره خيراً كثيراً، وأنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العسرِ يسراً [1].

* (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ): تهويل مخيف للمدة؛ ليتحول بطن الحوت من معدة هاضمة إلى قبر ممتد إلى يوم القيامة، لولا رحمة الله.

يشير ابن القيم في كتبه إلى "قوة الذكر والتسبيح" في خرق القوانين المادية؛ فالتسبيح غير وظيفة الحوت البيولوجية من الهضم والتدمير إلى الحفظ والرحمة.

* (فَنَبِّئْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ)، (فَنَبِّئْنَاهُ): النبذ هو الطرح، وفيه إشارة لعظمة القدرة الإلهية التي تأمر الحوت فيقذفه، (بِالْعَرَاءِ): المكان القفر الخالي من الأشجار والبناء، (وَهُوَ سَقِيمٌ): حال من الياء، أي عليل ضعيف البنية كالفرخ المنتوف بعد أن أثرت فيه عصارة بطن الحوت الحامضية.

* (وَأَنْبِئْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ)، البلاغة والمقاصد الطبية/النفسية: اختيار يَقْطِينٍ (وهو الدباء أو القرع) من أدق الإعجاز العلمي والنفسي؛ فشجر اليقطين يتميز بورق عريض ناعم يظل الجسد المريض، ولا يقربه الذباب والحشرات، ويؤكل ثمره نيئاً ومطبوخاً، وجذعه لين لا يؤذي سقيم البنية.

إشراقة تفسيرية: (في ظلال القرآن)، تبرز الرعاية الإلهية الحانية الوديعية؛ فالنبي العبد الذي عاتبه ربه أشد العتاب، هو نفسه العبد الذي يحوطه ربه بأرق أنواع الحنان والشفاء حين يعود ويلجأ إليه سبحانه.

* (وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَاْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)، النحو: (أَوْ) في (أَوْ يَزِيدُونَ) ليست للشك، تعالى الله عن ذلك، بل هي بمعنى "بل يزيدون"،

1- أخرجه الترمذي (2516) مختصراً بنحوه، وأحمد (2803) باختلاف يسير، والبيهقي في ((الاعتقاد)) (ص139) واللفظ له، قال في الدرر السنية عن سنده: صحيح.

للإضراب الارتجالي، أو هي بحسب نظر الناظرين (أي: لو رآهم الرائي لقال هم مائة ألف أو يزيدون على هذا التقدير البشري)، وهو مذهب ابن عاشور والفراء.

المقصد الختامي البليغ: قصة يونس هي القصة الوحيدة في القرآن التي تنتهي بإيمان الأمة أو القوم كاملين دون إهلاك (فَأْمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ). وجاء هذا الختام في السورة لفتح باب الأمل لكفار مكة؛ إن الله يقول لهم: إن تداركتم أنفسكم وآمنتكم بمحمد ﷺ فستنجون وتمتعون كما آمن قوم يونس فمتّعوا، فالقانون الإلهي يتسع للتوبة والإيمان كما يتسع للعدل والانتقام.

وقد آمنت مكة جميعها يوم فتح مكة، ثم لم تشهد مكة المكرمة فتنة الردة كغيرها من مناطق الجزيرة العربية، بل كانت معقلاً للثبات والاستقرار وحصناً للإسلام إثر وفاة النبي ﷺ عام 11 للهجرة. تماسك أهل مكة بقيادة الصحابي عتاب بن أسيد، وساهموا بشكل فعال في القضاء على حركات الردة في المناطق المجاورة.

* (فَاسْتَفْتِهِم أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ (149) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (150) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (151) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (152) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (153) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (154) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (155) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ (156) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (157) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (159) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (160) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (161) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ (162) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (163) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (164) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (166) وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (167) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (169) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (170) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالِبُونَ (173) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (174) وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (175) أَفَبِعَدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ (176) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْدَرِينَ (177) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (178) وَأَبْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (179) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (182))

هذا الدرس الختامي من سورة الصافات يمثل ذروة السورة ومصب مقاصدها الكبرى. فبعد أن طوّفت بنا الدروس السابقة في عوالم الغيب العلوي (الصافات، الزاجرات، المسبحات)، وعرّجت بنا على مصارع التاريخ وسُنن الأنبياء؛ يعود السياق هنا ليواجه المشركين في عقر دارهم الفكرية، مدمراً أساطيرهم المتهافتة حول الشرك بالله، وسوء تصورهم عن عالم الملائكة، لينتهي بالمشهد الحاسم: انتصار جند الله، وكسر شوكة الباطل، وتسبيح الجلال والجمال الكوني.

أولاً: إبطال أساطير الشرك بأسلوب المناظرة والتهكم: المقصد العام: تعرية العقل المشرك وإلزامه بالتناقض الصارخ في تقسيماته وتشريعاته.

* (فاسْتَفْتِهِمُ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ): الفاء رابطة لترتيب الاستخبار على ما تقدم من القصص. و(اسْتَفْتِهِمُ) أمر بالسؤال والاستيضاح (من الفتيا). الهمزة في أَلِرَبِّكَ للاستفهام الإنكاري التوبيخي. وتقديم شبه الجملة (أَلِرَبِّكَ) لإفادة التخصيص الاستنكاري.

البلاغة: مقابلة تهكمية لاذعة؛ فالمشركون يكرهون البنات وإذا بُشِّرَ أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، ومع ذلك ينسبون لله البنات وينسبون لأنفسهم البنين الذين يحبونهم! وهو ما سماه القرآن في موضع آخر (قسمة ضيزى).

إشراقة تفسيرية: يرى ابن عاشور - رحمه الله - أن هذا الاستفتاء ليس لطلب العلم، بل هو تسجيل للعجز والتهافت الفكري. و(في ظلال القرآن) يصور سيد قطب - رحمه الله - كيف يعري القرآن الأوهام الجاهلية التي لا تستند إلى منطق عقلي أو إيماني، بل هي محض تخرصات نفسية مهتزة.

* (أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ): (أَمْ) هي المنقطعة التي تقدر ب (بل) والهمزة)، للانتقال من إبطال دعوى إلى إبطال أخرى أشد دناءة. وجملة (وَهُمْ شَاهِدُونَ) اسمية في محل نصب حال.

البلاغة: مطالبة المشركين ب "الدليل الحسي الحاضر". فالشهود يقتضي المعاينة، وكان القرآن يسخر منهم: هل كنتم حاضرين وقت خلق الملائكة حتى حكمتم بذكورتهم أو أنوثتهم؟

إشراقة تفسيرية: يركز ابن تيمية - رحمه الله - على أن الغيبيات لا تُتلقى إلا بالوحي الصادق، فمن قال في الغيب بلا وحي فقد ادعى مشهد المعاينة، وهو كاذب بالضرورة.

* (أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَآلَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ): (أَلَا): أداة استفتاح وتنبيه وتشويق لما بعدها. وجملة (إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ) مؤكدة ب (إِنَّ) و(لام الابتداء المزحلقة). وتقديم الجار والمجرور مِّنْ إِفْكِهِمْ لحصر سبب هذا القول في الكذب والافتراء المحض.

البلاغة: "الإفك" أشد الكذب وأقبحه، لأنه يقلب الحقائق رأساً على عقب. وجاء التعبير بالماضي: (وَآلَ اللَّهِ) لتصوير أن هذه العقيدة الفاسدة قد ترسخت في وعيهم المريض كأنه حدث مضى وانتهى، فعقب القرآن بالجملة الاسمية المؤكدة بنفي التهمة وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ كحكم قضائي بات مبرم.

* (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ): أصل الفعل (أَصْطَفَى) بهمزة الاستفهام وهمزة الوصل، فحذفت همزة الوصل خطأً ولفظاً للاستغناء عنها بهزة الاستفهام المفتوحة.

البلاغة: الاستفهام هنا للإنكار والتعجب والتهكم؛ والاصطفاء هو اختيار الصفة، فكيف يختار الله الأدنى (بحسب ميزانكم أنتم) ويترك لكم الأعلى؟!

إشراقة تفسيرية: يبرز البقاعي - رحمه الله - في "نظم الدرر" التناسب بين لفظ الاصطفاء هنا وما سبقه من اصطفاء الأنبياء (المخلصين)؛ فالله يصطفي من عباده رجالاً للرسالة، وأنتم تدعون أنه يصطفي البنات لنفسه، شتان بين النظمين!

* (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)، البلاغة: (مَا لَكُمْ) تعبير يُقال عند التعجب من حال شخص قد فارق الصواب، وكَيْفَ تَحْكُمُونَ استفهام عن "الجهة والتحليل" اللذين بنوا عليهما هذا الحكم الفاسد، والفاء في (أَفَلَا) عاطفة على مقدر (أَتعمون فلا تذكرون)، والتذكر هنا إشارة إلى أن بطلان قولهم مستقر في الفطرة الأولى، ولا يحتاج إلا إلى أدنى التفاتة ذهنية.

* (أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ): (سُلْطَانٌ) هنا بمعنى الحجة والبرهان العقلي أو النقلي المسلط على القلوب لإقناعها.

البلاغة: الانتقال من مناقشة العقل والفطرة إلى مطالبة الدليل المكتوب والتوثيق؛ والفعل (فَأْتُوا) أمر تعجيزي، ووصف الكتاب بـ (بِكِتَابِكُمْ)، بضمير الملكية، زيادة في تبكيتهم، أي: أرونا هذا الكتاب الخارق الذي نزل عليكم ولم يعلمه أحد غيركم!

ثانياً: فرية الصهر بين الله والجن وتنزيه المخلصين: المقصد العام: قطع علائق الشرك الكوني، وبيان أن العذاب محيط بالظالمين بينما النجاة للمخلصين.

* (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ): (الْجِنَّةُ) هنا هم الجن (وقيل الملائكة لأنهم مستورون عن الأعين). (نَسَبًا) مفعول به ثانٍ للفعل (جعلوا).

البلاغة والمقاصد: زعم كفار مكة أنّ الملائكة بنات الله من سروات الجن (أي خطب الله إلى الجن فولد له الملائكة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً). والمفارقة البلاغية الهائلة هنا هي شهادة الطرف الآخر في الفرية: (وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ)؛ فالجن أنفسهم يعلمون أنهم عبيد مربوبون مقهورون، سيعادون ويحضرون للحساب والعذاب كالمشركين، فكيف يكون المقهور المحضّر شريكاً ونسباً للخالق سبحانه؟!

* (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ): (سُبْحَانَ) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (أُسْبِحْ)، وهو يفيد التنزيه المطلق. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ استثناء منقطع، أي: لكن عباد الله المخلصين لا يصفونه بذلك بل يصفونه بالكمال، أو استثناء متصل من الضمير في (لَمْ حَضَرُونَ) في الآية السابقة (أي الجن والمشركون محضرون للعذاب إلا عباد الله المخلصين منهم).

إشراقة تفسيرية: يقف ابن القيم - رحمه الله - هنا وقفة جليلة ليؤكد أن المخلصين (بالفتح) قد طهر الله عقولهم وأسننهم عن لغو الواصفين بالباطل، فوصفهم الله هو الوصف الحق الصافي المتصل بنور الوحي.

* (فَأَنكُم مَّا تَعْبُدُونَ، مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ): (فَأَنكُم) إنَّ واسمها، والواو عاطفة، و(مَا تَعْبُدُونَ) معطوف عليه. وجملة (مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ) هي خبر إنَّ، والباء في (بِفَاتِنِينَ) زائدة لتأكيد النفي. و(بِفَاتِنِينَ) اسم فاعل من فتن، ويعدى بـ (على) بتضمينه معنى (بحاملين أو بمضلين).

البلاغة وسياق القدر: هذا إعلان لعجز الشيطان وحزبه عجزاً كلياً؛ فأنتم وأصنامكم وقدراتكم الإغوائية لا تملكون القدرة على إضلال نفس واحدة وجذبها للكفر إلا النفس التي اختارت الشقاء وأصررت على الصيرورة والاحتراق بـ (صَالٍ الْجَحِيمِ) سابق علم الله وعدله.

إشراقة تفسيرية: يستدل ابن تيمية - رحمه الله - بهذه الآية على أن الهدى والضلال بيد الله، وأن باطل أهل الأوهام لا يروج إلا على من فسدت فطرته ورضي لنفسه الهلاك.

ثالثاً: حقيقة المقام الملائكي المسيح، المقصد العام: إعادة صياغة التصور الحقيقي للملائكة على ألسنتهم؛ فهم عبيد مصفوفون مسبحون لا بنات ولا شركاء.

ملاحظة نظمية: الجمل هنا محكية على لسان الملائكة رداً على فرية المشركين، وهو التفات بليغ ينقلنا من التوبيخ البشري إلى الشهادة الملائكية المباشرة

التصور الصحيح للمقام الملائكي :

[مَقَامٌ مَّعْلُومٌ]	[الصَّافُونَ]	[الْمُسَبِّحُونَ]
حدود العبودية والامتثال	نظام واصطفاف دائم	تنزيه دائم وتقديس لله

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ): الواو استئنافية، وحذف المبتدأ المقدر؛ أي: (وما) منا أحدٌ إلا له مقام). وتقديم شبه الجملة له على المبتدأ المؤخر مَقَامٌ لبيان الحصر والتحسين الوظيفي.

البلاغة والمقاصد: نفي مطلق للعشوائية والادعاء؛ فكل ملك له رتبة، وحدود، ووظيفة كونية (جبريل للوحي، ميكائيل للقطر، ملك الموت للقبض)، لا يتعداها ولا يبتدع من تلقاء نفسه، وهذا غاية الأدب والعبودية والمنافاة التامة لادعاء "البنوة".

* (وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ): تكرر صيغة المؤكدات الجاذبة للانتباه (وَإِنَّا + لَنَحْنُ بضمير الفصل المغلظ + اللام المزحلقة)، مع التعبير باسم الفاعل المعرف بـ (أل) الدال على الثبوت والدوام والاستمرار في الفعل والاستحقاق.

البلاغة والربط أول السورة: هذا هو التلاحم البديع لنظم السورة (براعة الختام تلتقي ببراءة الاستهلال)؛ فقد افتتحت السورة بـ وَالصَّافَاتِ صَفًّا، وتختم هنا بشهادة الملائكة عن أنفسهم: وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (المصطفون للصلاة أو لأوامر الله) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (المنزهون لله تبارك وتعالى دائماً).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما في السموات السبع موضع قدمٍ ، ولا شبرٍ ، ولا كفٌّ إلا وفيه ملكٌ قائمٌ ، أو ملكٌ ساجدٌ ، أو ملكٌ راکعٌ ، فإذا كان يومُ القيامةِ ، قالوا جميعاً : ما عبدناك حقَّ عبادتِكَ إلا أنا لم نُشركْ بِكَ شيئاً [1]..

وعن أبي ذر الغفاري رض الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قد أطَّت بهم السماء ، وحقَّ لها أن تنطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائمٌ ، أو راکعٌ ، أو ساجدٌ [2].

رابعاً: لاجبة مشركي مكة وتهافت وعودهم: المقصد العام: كشف التناقض الأخلاقي والتاريخي لكفار قريش.

* (وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ، لَوْ أَنْ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ، لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ): (إن) هنا هي المخففة من الثقيلة، واللام في (لَيَقُولُونَ) هي الفارقة بينها وبين (إن) النافية. (ولو) حرف امتناع لامتناع يفيد التمني الممتزج بالتحسر المصطنع.

البلاغة والسياق: يصور القرآن أمانتهم القديمة قبل بعثة النبي ﷺ؛ حيث كانوا ينظرون لأهل الكتاب (اليهود والنصارى) ويقولون: لو جاءنا كتاب وذكر كما جاءهم لَكُنَّا أخلص عبادة وأشد تقوى منهم.

* (فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ): الفاء فصيحة عاطفة تكشف الواقع الصادم الفوري؛ فبمجرد أن جاءهم هذا الذكر العظيم (القرآن) كفروا به مباشرة، دون مهلة للنظر.

1- أخرج الطبراني (184/2) (1751)، وأبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (1403)، وقال ابن حجر في تحفة النبلاء عن سنده: لا بأس برجاله.

2- قال الألباني عن سده: حسن بشواهده.

البلاغة: جملة التهديد الحاسم (فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)؛ حُذِفَ مفعول "يعلمون" (أي يعلمون عاقبة كفرهم وعذابهم) لإيقاع الرعب والتهويل بالسكوت عنه؛ فالوعد المبهم أشد وطناً على النفس من المحدد.

إشراقة تفسيرية: يشير محمد قطب في مراجعاته للنفس البشرية إلى "خداع النفس"؛ فكثير من البشر يعلقون إيمانهم واستقامتهم على شروط مستقبلية، فإذا تحققت الشروط نكسوا على أعقابهم كفراً و عناداً.

خامساً: قانون النصر الحتمي والوعد الإلهي لجند الله: المقصد العام: حسم المعركة الوجودية بين الحق والباطل، وبث الطمأنينة التامة في قلب النبي ﷺ والمؤمنين.

أركان الوعد الحتمي:

[وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ]	[وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ]
النصر مكتوب منذ الأزل في الغيب	المنظومة المؤمنة ستسود واقعاً في الأرض

* (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَإِنَّ جُنُدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

الجمل مصدره بالقسم والتحقيق العظيم وَلَقَدْ سَبَقَتْ. والتعبير بـ (كَلِمَتُنَا) يدل على القضاء المبرم المكتوب في اللوح المحفوظ الذي لا يتبدل. وجاءت أخبار (إِنَّ) مؤكدة بضمير الفصل وبـ (أَل) الجنس الاستغراقية العهدية (لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ) / (لَهُمُ الْغَالِبُونَ).

البلاغة والمقاصد: إضافة الجند إلى (نا) المتكلم المعظم جُنُدَنَا تشريف ما بعده تشريف للمؤمنين؛ فالذي ينتسب لله ويحمل منهجه هو جندي من جنوده، والغلبة له حتمية كونية قد تتأخر جولات، لكن العاقبة والختام لها.

إشراقة تفسيرية: (في ظلال القرآن) قال سيد قطب – رحمه الله -: تهتز النفوس أمام هذه الآية فرحاً؛ فالنصر كلمة سبقت في الكتاب الأزلي، والجند الغالبون هم أصحاب العقيدة الثابتة، والباطل منتفخ لكنه زاهق لا محالة.

ويؤكد ابن تيمية – رحمه الله - أن النصر قد يكون بالحجة والبيان، وقد يكون بالسيف والسنان، وكلاهما متحقق للمرسلين وأتباعهم.

* (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)، البلاغة: (فَتَوَلَّ) أمر بالإعراض المؤقت (حتى حين: وهو وقت يوم بدر أو فتح مكة). والأمر بـ (وَأَبْصَرَهُمْ) أي ارتقب ما سينزل بهم من العذاب وسوف يرون ذلك بأنفسهم عياناً وتتحول بصيرتهم الغائبة إلى بصر حسي منهار ومستسلم.

* (أَفْبِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ، فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ): تقديم الجار والمجرور (أَفْبِعْدَابِنَا) على الفعل جاء لتحويل شأن هذا العذاب المستعجل به. والفعل (فَسَاءَ) فعل جامد لإنشاء الذم.

البلاغة: استعارة تمثيلية حربية فائقة الروعة؛ حيث صور العذاب بـ "جيش كاسح دهم الأعداء بغتة" فنزل بـ (سَاحَتِهِمْ)، وعادة الجيوش الغازية تنزل بساحة وفناء المدن تمهيداً لاقتحامها، وجاء التعبير بـ (فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ) لأن الإغارة والمفاجأة قديماً كانت تقع وقت الصباح، فتبدل صباحهم المشرق بظلام دمار العذاب الحاسم.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى خَيْبَرَ أَيْلًا، وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بَلِيلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتِ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ، مُحَمَّدٌ وَالْحَمِيسُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَرَبْتُ خَيْبَرَ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ [1].

* (وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى جِينِ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ)، البلاغة: تكرار هاتين الآيتين ليس مجرد تكرار لفظي بل هو "تكرار تأكيدي وتقرير رائع"؛ فالأولى جاءت بعد ذكر نصر الأنبياء العام، والثانية جاءت بعد ذكر مشهد نزول العذاب بساحتهم للتأكيد التام على حتمية وقوع هذا الأمر الفاصل والتنشيط المضاعف لقلب المصطفى ﷺ. وحذف الضمير في الثانية وَأَبْصِرْ (بدون هم) لتعميم الرؤية، أي أبصر العذاب والفتح مطلقاً.

سادساً: التنويج الختامي الكوني للسورة: المقصد العام: قفل السورة بأعظم ترنيمة تنزيهية حمديّة وتكريمية تلخص الوجود كله.

* (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)، النحو: إضافة رَبِّ إلى الْعِزَّةِ (رب العزة) إضافة ملك وخلق وتصريف؛ فالإنس والجن والملائكة عبيد، والعزة صفة من صفاته وجلال مستحق له سبحانه. و(عَمَّا يَصِفُونَ) أي تنزيهاً له من كل تلك النقائص والأساطير السابقة (البنات، الصهر مع الجن، الشركاء).

* (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)، البلاغة والسياق والمقاصد: ما أجمل موقع هذه الآية هنا! فبعد أن نزه نفسه عما يصفه به الجاهلون، سلم على المرسلين؛ لأن وصفهم لله كان وصفاً طاهراً بريئاً من الإفك والشرك، ولأنهم تحمّلوا في سبيل إبلاغ هذا التوحيد أثقال الدعوة، فاستحقوا السلام والأمان المطلق من ربهم في الدنيا والآخرة.

* (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، البلاغة: الختام بالحمد الشامل المستغرق لكل المحامد بالتعريف (أل). وبدأت السورة بالملائكة في السماء وعوالم الغيب، وختمت

1- أخرجه البخاري (4197) ومسلم (1365)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (5549) باختلاف يسير، والبيهقي (3280) مختصراً ببعض لفظه.

ب (رَبِّ الْعَالَمِينَ) لتشمل عوالم الغيب والشهادة، السماء والأرض، الإنس والجن والملائكة.

النظرة الكلية: يلخص ابن القيم -رحمه الله - هذا الختام البديع بأن الله جمع فيه بين ثلاثة أصول لا يستقيم التوحيد إلا بها: التنزيه المتضمن لنفي النقائص (سُبْحَانَ)، والإثبات لرسالة الأنبياء الصادقين المستحقين للسلام المتبع مذهبهم (وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ)، والإقرار بإنعام الخالق وحمده على ربوبيته المطلقة للكون وسنن سنن النصر لجنوده المخلصين (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

*

سورة ص

تسمية السورة

(سورة ص): وهو التوقيفي المعروف في المصاحف ومعظم كتب التفسير، لافتتاحها بهذا الحرف، وقد يطلق عليها أحيانا سورة داود عليه السلام اجتهادا في بعض كتب التفسير لاشتهارها بذكر قصته.

وهي سورة مكية بإجماع المفسرين، وتهدف كغيرها من السور المكية إلى ترسيخ أصول التوحيد، والوحي، والبعث.

ويوجد عد آياتها خلاف بين علماء العدد، فهي ٨٨ آية: في العدد الكوفي، والمصاحف المنتشرة اليوم في العالم الإسلامي تتبع هذا العدد، و ٨٦ آية: في العدد الحجازي (المكي والمدني) والشامي، و 86 أو ٨٥ آية: في العدد البصري، وهذا الخلاف إنما يرجع للوقف والابتداء، مثل الحرف ص هل هو آية بذاته أم آية مع غيره.

سبب النزول

عن ابن عباس قال: مرض أبو طالب، فجاءته قريش وجاءه النبي صلى الله عليه وسلم وعند أبي طالب مجلس رجل، فقام أبو جهل كي يمنعه، قال: وشكوه إلى أبي طالب، فقال: يا ابن أخي، ما تريد من قومك؟ قال: إني أريد منهم كلمة واحدة تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم العجم الجزية. قال: كلمة واحدة؟ قال: كلمة واحدة. قال: يا عم يقولوا: لا إله إلا الله. فقالوا: إلها واحدا، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلا اختلاق. قال: فنزل فيهم القرآن: {ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق} إلى قوله: (ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) هذا حديث حسن صحيح [1].

1 - أخرجه الترمذي (3232) وقال حسن صحيح،

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول لقريش: هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب، وتؤدي العجم إليكم بها الجزية؟! قالوا: ما هي؟ قال: لا إله إلا الله [1]..

بسم الله الرحمن الرحيم

* (ص ٤ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّن قَرَّبْنَا قُنُودًا وَفَنَادُوا وَوَلَّاتٍ جِبِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۗ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۗ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ۗ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خِثْلًا (7) أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا ۗ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۗ بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ (8) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ فَلْيُرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10) جُنْدٌ مِمَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ (11) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (12) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۗ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (13) إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (14) وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (15) وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (16))

هذه الافتتاحية العظيمة من سورة ص تعد من مفاصل التوحيد والبيان الكبرى في القرآن الكريم.

المقصد العام للسياق الافتتاحي: المقصد الرئيس لهذه الآيات في هذا الدرس الأول هو قلع الكبر والغرور النفسي الذي يحجب الإنسان عن اتباع الحق، ومعالجة قضية "التوحيد" و"الرسالة" في مواجهة جهل المشركين وعنادهم، وبيان مآلات الأمم الطاغية قبلهم تنظيرًا وتاريخًا.

* (ص ٤ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ): ص: حرف هجاء مقطوع. إعرابه إما اسم للسورة مبني على السكون، أو مستأنف لا محل له من الإعراب.

وَالْقُرْآنِ: الواو واو القسم، "القرآن" مقسم به مجرور، ذِي الذِّكْرِ: "ذي" نعت للقرآن مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة، و"الذكر" مضاف إليه.

الإعجاز بالحروف المقطعة للتحدي؛ أن هذا القرآن مؤلف من جنس هذه الحروف التي تنطقون بها، ومع هذا لا تستطيعون أن تأتوا بمثله.

1 - أخرجه الترمذي (3232)، وأحمد (2008) مطولاً باختلاف يسير، وقال شعيب الأرنؤوط: [فيه] يحيى بن عمار، وذكره ابن حبان في الثقات وترجمه البخاري في التاريخ الكبير فلم يذكر فيه جرحاً.

التكثير والوصف بالذكر: "ذي الذكر" صفة كاشفة تفيد التشريف العظيم والتذكير الدائم وشرف الصيت والمكانة.

ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله - يقرران أن القرآن هو عين "الذكر" الذي يذكر الفطرة بما أودع الله فيها من التوحيد، وجواب القسم محذوف دل عليه السياق (أي: إنه لحق، أو إنك لمرسل).

أمّا ابن عاشور – رحمه الله - فيرى أن اختيار حرف (ص) له مناسبة صوتية وسياقية مع كثرة الكلمات المحتوية على الصاد في السورة (مناص، صيحة، اصبروا، الخصم...).

* (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ): بَل: حرف إضراب إبطالي، يبطل أن يكون سبب عدم إيمانهم خلل في القرآن، بل العيب في نفوسهم، وهو معنى يتكرر في القرآن بصيغ مختلفة.

(فِي عِزَّةٍ): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ (الذين). و"في" تفيد الانغماس والإحاطة، فقد أصبحت العزة والشقاق ظرفاً لهم يحيط بهم من كل جانب، والعزة: تأتي بمعنى الكبر والأنفة والتعالي، والامتناع عن قبول الحق، أما الشقاق: فتعني المعاندة والمخالفة، والعداوة، ومفارقة الحق.

سيد قطب – رحمه الله- يحلل النفسية الكافرة هنا؛ العائق ليس نقص الدليل، بل هي "العزة" الجاهلية والأنفة النفسية والمشاقة العصبية التي تحول بينهم وبين الاعتراف بالحق.

* (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَاتَ حِينٍ مِّنَاصٍ)، كَمْ: خبرية تفيد التكثير في محل نصب مفعول به مقدم لـ "أهلكنا".

وَوَلَاتَ حِينٍ مِّنَاصٍ: الواو حالية. "لات": حرف نفي يعمل عمل "ليس" عند بعض النحاة، واسمها محذوف تقديره (الحين)، و"حين" خبرها، و"مناص" مضاف إليه (بمعنى المهرب والمفر).

الإيجاز والتهويل: "فنادوا" حذف المنادى والمطلوب ليدل على شدة الكرب، فكل أحد يصرخ ويستغيث دون جدوى.

البقاعي: يربط الآية بما قبلها؛ فلما ذكر "عزتهم وشقاقهم" كسر هذا الكبر بذكر مصارع القرون الأولى، فالعزة لله وحده، وعزة الكافرين تؤول إلى ذل واستغاثة في وقت لا ينفع فيه المفر.

{وَوَلَاتَ حِينٍ مِّنَاصٍ} مثل قرآني سائر يخلد لحظة انقضاء الفرص ووقوع العذاب. تبرز وتجسد صراخ المستكبرين وطلبهم للنجاة حين لا ينفع النداء، كاشفة

عن حقيقة قرآنية مفادها أن للتوبة والعمل الصالح زمناً محدوداً، وإذا انقضى فات الأوان.

"لات": هو حرف نفي مختص بنفي أسماء الزمان كما جاء في (التحرير والتنوير) لابن عاشور، وهو في الأصل "لا" النافية زيدت عليها تاء التأنيث المفتوحة لتوكيد النفي والمبالغة في الربط، وقال ابن كثير في تفسيره: مثل زيادة التاء في "رُبَّتْ" و"ثَمَّتْ".

المعمولان (المحذوف والمنصوب): اختلف النحاة في تقدير المحذوف، والأرجح عند جمهور البلاغيين أن التقدير: (وليس الحينُ حينَ مناصٍ)؛ حيث حُذِفَ الاسم وبقي الخبر، أو العكس. و"حين" مضاف منصوب، و"مناص" مضاف إليه.

كلمة "مناص": مشتقة من الفعل (نَصَ) بمعنى تأخَّر أو هرب، كما في (الميزان في تفسير القرآن)، أي: لا وقت للفرار أو الخلاص.

حذف أحد ركني الجملة (الاسم أو الخبر) مع "لات" يضيف إيجازاً بليغاً يعكس سرعة الحدث وذهول الموقف؛ فالكلمات تُختزل لتناسب حالة الهلع والذعر التي يعيشها المكذبون لحظة الحقيقة.

جعل "الزمان" نفسه هو المنفي (أي ليس الوقت وقت هروب)، وهذا يطلق عليه البلاغيون: المجاز في الزمان، وفيه مبالغة بلاغية عظيمة، وكأن الزمان قد تصدَّر للمشهد ليعلن براءته من خدمتهم أو توفير ملاذ آمن لهم.

القراءة السياقية (في سياق سورة "ص") تأتي الآية الكريمة: (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تَجِئْنا بِآياتٍ جَدِيدَةٍ) في سياق تعقيب قرآني صارم على استكبار قريش وعجبهم من الرسول المنذر ﷺ. يوظف القرآن هنا أسلوب "قياس التمثيل"؛ حيث يعرض مشهد الأمم السابقة كمرآة عاكسة لمصير مشركي مكة المكرمة التحرير والتنوير لابن عاشور، ليقول لهم: هؤلاء استكبروا كاستكباركم، ونادوا واستغاثوا، فكان الرد الإلهي الحاسم: ليس وقت الاستجابة الآن.

يرى المفسر برهان الدين البيهقي في (نظم الدرر) وغيره من السلف كالحسن البصري ومجاهد، أن المراد بالنداء هو صراخهم وضجيجهم حين نزول بأس الله، فهم يطلبون التوبة حين لا تقبل، ويستغيثون في وقت انقضاء المهلة، وهذا تحذير بليغ من التسويف.

كما أشار الأستاذ سيد قطب في (في ظلال القرآن) إلى المقصد التربوي العميق من الآية؛ فالقرآن يلوح بهذه الصفحة القاتمة أمام أعين المستكبرين ليهزَّ كبرياءهم ويُطمئن قلوب المؤمنين. إنها دعوة لاستثمار "فسحة الوقت" والعمل قبل النداء الذي لا يُغني،

كما تتجلى في هذه العبارة سنة من سنن الله في الأمم (سنة الإهلاك والاستئصال للمكذابين بعد إقامة الحجة). ينظر إلى قوله (ولات حين مناص) كقاعدة كلية تؤكد أن الفرصة (دار العمل) تنتهي بمجرد معاينة العذاب والموت، وأن رحمة الله الممتدة في الدنيا تنقطع دون رجعة عند قيام الساعة ونزول العذاب الموعد.

تتقاطع هذه الآية مع آية سورة سبأ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ [سبأ: ٥١] في رسم المشهد الختامي للمستكبرين، حيث اليأس المطلق وانقطاع خطوط الرجعة غير أن لكل منهما بصمة بيانية، ولمسة سياقية تخصها.

فمن الناحية النحوية: نفي "الزمان" مقابل نفي "الحدث" ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾: النفي هنا متوجه إلى الزمان؛ فالوقت المتبقي لا يتسع للهروب. الصيغة ركزت على "فوات الأوان" الزمني.

أما قوله تعالى: ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾: فالنفي هنا للجنس باستخدام (لا) النافية للجنس، ومصدرها (فوت) مبني على الفتح، فالنفي هنا متوجه إلى الحدث والنتيجة مباشرة؛ أي لا قدرة على الإفلات، ولا مهرب أصلاً، ولا يفوتون على الله سبحانه وتعالى.

كما أن مشهد "الاستغاثة" هناك مقابل مشهد "المفاجأة" هنا، ففي سورة (ص): عبارة (فنادوا وولات حين مناص) تبرز حركة المستغيثين وصرائحهم؛ هناك نداء وضجيج، يقابله جدار زمني صامت وبارد من الرفض.

أما في سورة (سبأ): عبارة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا﴾ تبدأ بـ "لو" الشرطية التي حُذفت جوابها لتفخيم الأمر وتهويله (التقدير: لرأيت أمراً عظيماً هائلاً) كما قال في (التحرير والتنوير).

الآية تحذف جواب (لو) لأن المشهد فوق الوصف كما قاله ابن سعدي في تفسيره – رحمه الله-، وتنتقل فجأة من لحظة الفرع الشديد إلى الحسم المطلق ﴿فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ فلا مجال حتى للحركة أو إطلاق النداء

برهان الدين البقاعي في (نظم الدرر): يربط بين عجز الكفار عن الفوت وقربهم من قبضة الله.

في آية (ص)، كان السياق يتحدث عن إهلاك القرون السابقة وتأخر نداءاتهم عقب المكابرة. أما في (سبأ)، فالسياق يتناول القيامة الكبرى والبعث؛ لذا جاء التعبير ﴿فَلَا قُوَّةَ﴾ ليدل على أن الأجساد والأنفس مهما تباعدت وتلاشت، فإنها مأخوذة من مكان قريب جداً من علم الله وقدرته، فلا يملك أحد زمام أمره، أشار في (التحرير والتنوير).

تُبرز مدرسة ابن تيمية وابن القيم – رحمهما الله- النفسية بطلان التوبة عند المعاينة.

تُكْمَل آيَةُ سَبَأِ الْمَشْهَدِ قَائِلَةً: (وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) [سبأ: ٥٢]؛ والتناوش هو التناول السهل التحرير والتنوير لابن عاشور. يُدَقِّقُ ابْنُ الْقَيْمِ هُنَا فِي أَنَّ طَلِبَ الْإِيمَانِ فِي الْآخِرَةِ كَمَنْ يَحَاوِلُ التَّمَسُّكَ بِشَيْءٍ بَعِيدٍ جَدًّا وَمَسْتَحِيلٍ نَيْلِهِ؛ لِأَنَّ الدَّارَ تَخَرَّجَتْ مِنْ كَوْنِهَا "دَارَ عَمَلٍ" وَصَارَتْ "دَارَ جَزَاءٍ"، تَمَامًا كَمَا رُفِضَ طَلِبُ أَصْحَابِ صَ حِينَ أُدْرِكُوا أَنَّ الْوَقْتَ لَيْسَ (حِينَ مَنَاصِرٍ).

أَمَلُ سَيِّدِ قَطْبِ (ظِلَالُ الْقُرْآنِ): فَيُرَى فِي آيَةِ سَبَأِ قِمَّةِ الرَّعْبِ النَّفْسِيِّ وَالْمَادِيِّ. الْمَشْهَدُ يَرَسُمُ الْمَجْرَمِينَ مَبَاغِتِينَ بِالْفَزَعِ، تُحِيطُ بِهِمُ الْقُوَّةُ الْإِلَهِيَّةُ وَتَأْخُذُهُمْ أَخْذُ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ مِنْ أَقْرَبِ مَكَانٍ دُونَ مَجْهُودٍ (وَأَخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ) [سبأ: ٥١]. الْمَشْهَدُ فِي (ص) يُصَوِّرُ الْخَبِيئَةَ بَعْدَ السَّعْيِ وَالنَّدَاءِ، بَيْنَمَا الْمَشْهَدُ فِي (سَبَأٍ) يُصَوِّرُ الشَّلَلَ التَّامَ وَالْعَجْزَ عَنِ أَيِّ مَبَادِرَةٍ أَوْ مَحَاوَلَةٍ هَرَبَ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى لِلْفَزَعِ تَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ.

* (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ) وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَنْ جَاءَهُمْ: "أَنْ" مُصَدَّرِيَّةٌ، وَالْمُصَدَّرُ الْمُؤَوَّلُ فِي مَحَلِّ جَرِّ بِحَرْفِ جَرٍّ مَحْذُوفٍ (مَنْ أَنْ جَاءَهُمْ)، مُتَعَلِّقٌ بِـ "عَجِبُوا".

(مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ): نَعْتٌ سَبَبِيَّةٌ يَفِيدُ الْجِنْسِيَّةَ وَالْقَرَابَةَ، أَيُّ مَنْ جَلَدْتَهُمْ وَيَعْرِفُونَ صَدَقَهُ، كَمَا قَالَ جَعْفَرُ بْنُ عَبْدِ الطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَخَاطَبَةِ النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

حَدِيثُ أُمِّ سَلْمَةَ عِنْدَ [ابْنِ] خَزِيمَةَ فِي قِصَّةِ هَجْرَتِهِمْ إِلَى الْحَبَشَةِ [يَعْنِي حَدِيثَ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا حِينَ جَاءَ النَّجَاشِيُّ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوْلِهِ، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ قَالَتْ: وَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُؤْسِي الْجَوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعِفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِتَوْحِيدِهِ، وَلِنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَةِ الرَّحِمِ، وَحَسَنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَائِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَا نَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلَمْ نَشْرِكْ بِهِ وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، ثُمَّ ذَكَرَ بَاقِيَ الْحَدِيثِ] [1].

التسجيل عليهم بالكفر: قال (وَقَالَ الْكَافِرُونَ) ولم يقل "وقالوا" بالإضمار، لبيان أن هذا القول لا يصدر إلا من جاحد كافر، وتشبيحاً لهم بهذا الوصف الذميمة.

1 - أخرجه أحمد (1740)، وابن خزيمة (2260)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/115) جميعاً مطولاً. قال ابن حجر في الفتح (ج3/ص314) [فيه] سلمة بن الفضل فيه مقال، قال في التقريب صدوق كثير الخطأ وأشار في الفتح إلى رواية ابن خزيمة ومال إلى تضعيفها.

صيغ المبالغة: "ساحر" و"كذاب" (على وزن فعّال) للتنفير والافتراء الشديد، وكان هذا دأبهم، كما يقال: شنشنة نعرفها من أخزم.

يشير الأستاذ محمد قطب – رحمه الله – هنا إلى الخلل الفكري والتعصب الجاهلي؛ فبدلاً من أن يستبشروا بأن الرسول بشر منهم يفهمونه ويفهمهم، جعلوا الميزة عيباً ومثاراً للعجب والإنكار!

وذهبوا يتساءلون ويتعجبون: (أَجْعَلُ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ) (أَجْعَلُ): الهمزة لإنكار التعجب والإنكار، (الْإِلَهَةَ): مفعول أول لـ "جعل": بمعنى صَيَّرَ. (إِلَهًا وَاحِدًا): مفعول ثانٍ وصفته. و(عَجَابٌ): صيغة مبالغة من "عجيب"، تدل على متناهي العجب.

المقابلة والتضاد بين (الآلهة) بصيغة الجمع و(إلهاً واحداً) بصيغة الإفراد، لإبراز حجم الصدمة التي تلقتهما العقلية المشتركة.

يوضح ابن القيم – رحمه الله-: أن المشركين ألفوا الشرك والتشتت حتى صار التوحيد الخالص مستغرباً عندهم، وهذا من انتكاس الفطرة وسيطرة العادة والتقليد.

* (وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ)

(الْمَلَأُ): كبراء القوم وسادتهم، (أَنْ امشُوا): "أن" تفسيرية لأن "انطلق" يتضمن معنى القول دون حروفه، أو مصدرية بتقدير حرف الجر (بأن امشوا).

(امشُوا وَاصْبِرُوا): يقول البلاغيون: استعارة مكنية كأنهم في معركة أو رحلة شاقة تتطلب الثبات، وهو حث على اللجاج في الباطل.

(إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ): إبهام "يراد" بالبناء لما لم يسم فاعله لتحويل الأمر، أي: إن وراء دعوة التوحيد مكيدة أو أمراً خفياً يراد بنا لتجريدنا من سيادتنا.

يصور سيد قطب – رحمه الله- "الملا" هنا كطبقة رأسمالية سياسية تخاف على مكتسباتها ومكانتها الاجتماعية القائمة على سدانة الأوثان، فيحرصون على تخدير الأتباع بـ "الصبر" على الباطل.

* (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ): (فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ): جار ومجرور متعلق بمحذوف حال، والمقصود بها إما نصرانية عيسى (آخر الملل قبل الإسلام) أو ملة آبائهم المعاصرين.

(إِنْ هَذَا إِلَّا): "إن" نافية بمعنى "ما"، و"إلا" أداة حصر. و"اختلاق" أي كذب وافتراء مصطنع.

القصر بالحصر بـ (إن وإلا) لتأكيد ادعائهم الباطل وتصميمهم على تكذيب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

* (أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي ۖ بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ)

(أَنْزَلَ): همزة الاستفهام الإنكاري المقترن بالحسد والأنفة، (بَلْ): حرف إضراب انتقالي كرر مرتين (بَلْ هُمْ... ثم بَلْ لَمَّا...) للانتقال من كشف مرضهم النفسي إلى تهديدهم بالعذاب.

(لَمَّا): حرف جزم ونفي يفيد استمرار النفي في الماضي وتوقع حصول المنفي في المستقبل القريب (أي سيدوقونه حتماً).

التعبير بـ (مِن بَيْنِنَا) إيجاز يعبر عن الحسد الكامن؛ أي لماذا هو بالذات دون كبراء مكة وعظماؤها؟ وهذا دأبهم ودينهم في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وحسده، وقد تكرر منهم، كما في سورة الزخرف: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف:31] فكان جوابهم هناك: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۗ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ۗ وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) [الزخرف:32].

يحلل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: هنا منبع الكفر، وهو الحسد للرسول ﷺ والاستكبار على شخصه، والشك لعدم تدبرهم، والحل الوحيد لكسر هذا الشك هو ذوق العذاب الذي ينزع حجاب الكبر.

* (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۗ فَلْيُرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (10))

(أَمْ): منقطعة بمعنى "بل" والهمزة، تفيد الانتقال لتبكيتهم والتهكم بهم، (فَلْيُرْتَقُوا): الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، واللام لام الأمر، للتعجيز والتهكم، "يرتقوا" مجزوم بحذف النون.

التهكم والتعجيز: أمرهم بالارتقاء في أسباب السماء (الحبال أو الطرق) فهي دعوة للصعود والارتقاء إن كانوا يملكون التدبير، وهو قمة السخرية من عجزهم البشري، كأنها تذكير بطلب سلفهم فرعون (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۗ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) [غافر:36-37].

التناسب في الأسماء الحسنى: أضاف الخزائن للرحمة، وقرنها بـ (العزیز) القادر على سلبهم، و(الوهاب) الذي يهب النبوة لمن يشاء من عباده، كما في سورة الزخرف.

يظهر ابن عاشور والبقاعي هنا التناسب البديع؛ لما اعترضوا على تخصيص النبي ﷺ بالرسالة، سألهم القرآن متهمكماً: أنتم قسمة الخزائن والملك؟ فإذا كنتم عاجزين عن الصعود للسماء، فكيف تتحكمون في الوحي؟

* (جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ): جُنْدٌ: مبتدأ مؤخر، أو خبر لمبتدأ محذوف (هم جند)، و(مَّا): نكرة تفيد التقليل والتحقير نعت لـ "جند"، و(مَهْزُومٌ): نعت ثانٍ لـ "جند"، وفيه نبوءة غيبية بهزائهم التي سوقعها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم قبل وقوعها.

التنكير والتحقير: تنكير "جند" وتدقيقها بـ "ما" و"هنالك" (للاشارة للبعيد تحقيراً لمكانهم) يصور هؤلاء الصناديد كشرذمة قليلة مهزومة لا وزن لها في ميزان الحق.

يشير سيد قطب – رحمه الله - إلى أن هذه الآية لقطة خاطفة من ضلال القرآن؛ ترسم مشهد الطغاة القرشيين ومن تحزب معهم كحفنة من الجند المهزومين سلفاً في السنن الكونية، وفيها تثبيت وتطمين لقلب النبي ﷺ.

* (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ، وَثَمُودٌ وَقَوْمٌ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۗ، إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ)

(ذُو الْأَوْتَادِ): "ذو" نعت لفرعون بمعنى صاحب، (إِنَّ كُلَّ إِلَّا): "إن" نافية، و"كل" مبتدأ تنوينه عوض عن مضاف إليه (كلهم)، و"إلا" للحصر، وجملة "كذب" خبر، (عِقَابِ): أصلها (عقابي)، وحذفت الياء لمراعاة فواصل الآيات (رؤوس الآي).

الإيجاز التاريخي: سرد سريع ومزلزل للأمم الطاغية (نوح، عاد، فرعون، ثمود، لوط، أصحاب الأيكة)، ووصفهم بـ "الأحزاب" ليجانس لفظ الآية، كما أن كل منهم تحزبوا على أنبيائهم، ويربط حاضر قریش بماضي الطغاة المشؤوم.

(ذُو الْأَوْتَادِ): كناية عن القوة والتمكين والتعذيب بالأوتاد، وقيل: الأوتاد هي الإهرامات، فهي كالجبال الأوتاد.

يركز ابن القيم ومحمد قطب – رحمهما الله على أن السنن التاريخية لا تتبدل، التحزب ضد الحق قاسم مشترك بين المجرمين، ومآله الإهلاك ووقوع العقاب المحتوم (فحق عقاب).

* (وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ)، (وَمَا يَنْظُرُ): أي ما ينتظر، و(فَوَاقٍ) بمعنى النَّظْرَةِ وهي الإمهال.

العلاقة بين "النَّظْرَةَ" (بفتح النون وسكون الظاء) في الآية الكريمة بمعنى الانتظار، وبين "النَّظْرَةَ" (بكسر الظاء) بمعنى المهلة هي علاقة تضاد في المعنى

وارتباط في السياق؛ فكفار قريش كانوا ينتظرون (نظرة) عذاب الله مستعجلين به، لكن الآية تؤكد أنه حين يأتي العذاب لن تكون هناك (نظرة) بمعنى المهلة والإمهال.

فقوله تعالى: (وَمَا يَنْظُرُ هُوَ إِلَّا أَيُّ: وما ينتظر هؤلاء إلا صيحة واحدة. النَّظْرَةُ بكسر الظاء: تعني التأخير والإمهال، ومثلها قوله تعالى (وَإِنْ كَانَ دُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۗ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [البقرة: 280].

يكن الإعجاز البلاغي في الآية هنا: حيث اختلف المفسرون في معنى "الفواق"، ويشمل ذلك: المعنى الأول: أنه لا يوجد فيها (نظرة) أو مهلة، بل هي صيحة استئصال تقع بغتة. المعنى الثاني: أن الصيحة لا تتردد ولا ترجع، بل تهللكم من فورها ولا تتوقف لتعطيهم فرصة للتراجع.

(مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ): "ما" نافية، "من" حرف جر زائد لاستغراق الجنس وتأكيد النفي، و"فواق" مبتدأ مؤخر مجرور لفظاً مرفوع محلاً (بمعنى رجوع أو إفاقة أو راحة بقدر فواق ناقة) أي: حلبها.

(صيحة واحدة ما لها من فواق) كناية عن السرعة القاتلة والشدة الاستئصالية التي لا تترك فرصة للمصيح فيه أن يفيق أو ينتفس.

يلمح ابن عاشور في الآية تحذير فجائي مرعب لقريش، فهم يعيشون في غفلتهم وعزتهم، بينما العذاب مستعد لافتراسهم بصيحة مباغتة واحدة تنهي وجودهم الجاهلي.

* (وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ): (عَجَّلْنَا قِطَّنًا): "قِطَّنًا" مفعول به لـ "عَجَّلْ"، والقِطُّ في اللسان هو النسيب والقطعة من الشيء (أو كتاب العذاب أو الصحيفة).

الأسلوب الإنشائي (الأمر المراد به التهكم والاستهزاء): دعاؤهم بتعجيل نصيبهم من العذاب سخريةً وتكذيباً بيوم الحساب.

خلاصة: يختم هذا السياق الافتتاحي برسم اللمة الأخيرة من غياب العزة والشقاق؛ فبدل أن يتوبوا عند سماع وعيد "الصيحة"، يدفعهم العناد المتهور المستهزئ إلى طلب تعجيل نصيبهم من العذاب استبعاداً لطقوس الحساب، وفي هذا تمهيد لانتقال السورة مباشرة لقصة داود وسليمان وبقية الأنبياء كنموذج للمؤمنين الأوابين الأذلاء للحق وللخالق سبحانه جل وتعالى، في مقابل كبر الصناديد وأحزاب الضلال.

* (اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَ بِالْعَنِيِّ وَالْإِنشِرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخَطَابِ (20) ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي

لَهُ تَسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ۗ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (25) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَظْلُمُونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (26))

هذه الآيات من هذا الدرس من سورة "ص" تمثل بنية بيانية مذهلة، تنتقل من توجيه النَّفْسِ النبوي الصابر، إلى عرض ملكوت نبي الله داود -عليه السلام-، ثم وضعه في ميزان الابتلاء البشري والتمكين والمسؤولية.

* (اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ۗ إِنَّهُ أَوَّابٌ)، المقصد والسياق: الآية مواساة وتنبيت للرسول ﷺ إثر تكذيب قريش حين قال عنهم في بداية السورة: (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ۗ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ)، الرابط هنا - كما يلمح البقاعي في (نظم الدرر)- هو: إن كذبك لقلّة مالك ورجالك، فاذا ذكر عبدنا داود الذي أوتي من القوة والملك ما لم يؤت أحد، ومع ذلك كانت عبوديته لربه هي شرفه الأسمى.

(عَبْدَنَا): إضافة العبودية إلى (نا) المتكلم (ضمير العظمة) تشريف وتكريم بليغ.

وقد شرف نبينا بأن اختار عبدا رسولا حين خيره ربه جل وتعالى: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريلُ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى السماء فإذا ملكٌ ينزلُ فقال جبريلُ هذا الملكُ ما نزل منذ خُلِقَ قبل الساعةِ فلما نزل قال يا محمدُ أرسلني إليك ربُّك أفملكًا نبياً أجعلك أو عبداً رسولاً قال جبريلُ تواضع لربِّك يا محمدُ قال بل عبداً رسولاً [1].

(ذَا الْأَيْدِ): ذَا منصوبة على أنها نعت لـ عَبْدَنَا (أو بدل). والأيد: القوة (من آدَ يَبِيدُ إذا قوي). وجاءت معرفة بـ (أل) الجنسية لاستغراق صفة القوة في العبادة، والقوة في الحكم، والقوة في البدن.

(إِنَّهُ أَوَّابٌ): الجملة تعليلية بـ إِنَّ المشددة وصيغة المبالغة أَوَّابٌ: كثير الرجوع والتوبة.

1 - أخرجه أحمد (7160)، والبخاري (9807)، وأبو يعلى (6105)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد عن سننه: رجاله رجال الصحيح.

الإشراقه البلاغية: ابن القيم - رحمه الله - في (مدارج السالكين) يربط بين "الأيد" (القوة) و"الأوب" (الرجوع). فالقوة بلا أوب طغيان، والأوب بلا قوة عجز. داود جمع بين كمال القوة وكمال الرجوع إلى الله؛ فصام نصف الدهر وقام نصف الليل.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كنته، فيسألها عن بعليها، فنقول: نعم الرجل من رجل لم يظأ لنا فرائشاً، ولم يفتش لنا كنفاً منذ أتيناها! فلما طال ذلك عليه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: القني به، فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم؟ قال: كل يوم، قال: وكيف تختم؟ قال: كل ليلة، قال: صم في كل شهر ثلاثة، وقرأ القرآن في كل شهر، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: صم ثلاثة أيام في الجمعة، قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: أفطر يومين وصم يوماً، قال: قلت: أطيق أكثر من ذلك، قال: صم أفضل الصوم صوم داود: صيام يوم، وإفطار يوم، وقرأ في كل سبع ليال مرة. فليتني قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أني كبرت وضعت، فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار، والذي يقرؤه يعرضه من النهار؛ ليكون أخف عليه بالليل، وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى، وصام مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي صلى الله عليه وسلم عليه [1].

وعنه رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدسه، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً [2].

* (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق): المقصد والسياق: تصوير مظهر من مظاهر "الأيد" والملك الروحي والكوني لداود، حيث يتناغم الكون معه في تسبيحه واستغفاره.

فقد ذكر عدد من المفسرين أن معنى (الأواب) هو كثير الاستغفار، أو الراجع عن الذنوب بالتوبة، ومن أبرزهم: ابن كثير - رحمه الله - : في تفسيره لقوله تعالى (إِنَّهُ أَوَّابٌ)، نقل عن الضحاك وغيره أن معناه كثير الرجوع إلى الله، وكلما ذكر ذنبه استغفر منه.

كما نقل عن عبيد بن عمير قوله: "الأواب هو الحفيظ الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله عز وجل".

- 1 - أخرجه البخاري (5052) وهذا لفظه، وأخرجه مسلم (1159) باختلاف يسير
- 2 - أخرجه مسلم (1159) وهذا لفظه، وأخرجه البخاري (1131) باختلاف يسير

وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: فسر الأواب بأنه: "الحفيظ الذي إذا ذكر خطاياهم استغفر منها".

وعن مجاهد والشعبي: ذهبوا إلى أن الأواب هو الذي يذكر ذنوبه في الخلوة فيستغفر الله منها.

كما أشار الزجاج في كتابه (معاني القرآن وإعرابه) إلى أن الأواب هو المطيع الذي يرجع عن الذنوب ويستغفر.

وقد ورث نبينا صلى الله عليه وسلم هذا الاستغفار، فعن أبي هريرة، (وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) [محمد: 19] فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لِأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً» [1].

وورثه لأُمَّتِهِ، وأمرهم به، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: والذي نفسي بيده، لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم [2].

(يُسَبِّحْنَ): جملة فعلية في محل نصب حال من الجبال. واختيار الفعل المضارع يفيد تجدد التسبيح واستمراره.

(بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ): العشي: من زوال الشمس إلى غروبها. الإشراق: وقت شروق الشمس وإضاءتها. ذكر الطرفين يفيد عموم الوقت واستيعابه، وهو ما يُعرف في البلاغة بـ (المقابلة) أو (الطباق) لبيان الإحاطة الزمانية.

إشراقه بلاغية: ابن عاشور في (التحرير والتنوير) ينبه إلى أن تقديم الجبال هنا؛ لأن تسبيح الجبال (وهي جماد ثقيل صامت) أعجب في خرق العادة وأدل على التسخير الباهر من تسبيح الطير. و(في ظلال القرآن) قال سيد قطب: نرى الكون كله يتحول إلى "محراب صلاة" يتجاوب فيه جماد الأرض مع أنفاس النبي الأواب عليه السلام.

وقد حدثنا نبينا صلى الله عليه وسلم على كثرة التسبيح والذكر: عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سَلَامِي مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ؛ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى [3].

1 - أخرجه البخاري (6307) بنحوه، والترمذي (3259) واللفظ له

2 - أخرجه مسلم (2749)

3 - أخرجه مسلم (718)، وأبو داود (1293)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) باختلاف يسير، والبخاري (1177) بنحوه مختصرا

وكلُّ تسبيحه بحسبه، ومن معاني التسبيح الصلاة: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ، وَإِنِّي لِأَسْبِخُهَا، وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَدْعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ؛ حَشِيَةً أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ [1].

* (وَالتَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ): المقصد والسياق: إتمام مشهد التناغم الكوني؛ فبعد الجماد الثقيل (الجبال)، يأتي الحيوان الخفيف الطائر، ليجتمع الكل في حلقة الذكر الداودية.

(وَالتَّيْرَ): منصوبة بفعل محذوف تقديره "وسخرنا الطير"، أو معطوفة على "الجبال".

(مَحْشُورَةً): حال من الطير، وتفيد الجمع والحشد القسري للتسبيح، أي مجموعة ومحبوسة على طاعة الله وتسبيحه تناغماً مع تسبيح بني الله داود عليه السلام.

(كُلُّ لَّهُ أَوَّابٌ): كُلُّ مبتدأ (والتنوين تنوين عوض عن مضاف إليه: أي كلهم). (أَوَّابٌ): خبر، وتقديم الجار والمجرور لهُ (أي لله، أو لداود تَبَعاً لطاعة الله) يفيد الاختصاص والاهتمام.

إشراقة بلاغية: يشير شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كلامه عن تسبيح الكائنات إلى أن هذا التسبيح كان حقيقياً يُسمع، حيث أوتي داود مزامراً من مزامير آل داود يُرجع به الصوت، فتقف الطير في الهواء وتردد معه، وترجف الجبال لصوته إجلالاً لله.

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي مُوسَى: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مِزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ» [2].

* (وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ): المقصد والسياق: الانتقال من الملك الروحي والكوني إلى الملك السياسي والتشريعي؛ لبيان كمال التمكين لداود تمهيداً لقصة الابتلاء.

(شَدَدْنَا): يقول البلاغيون: استعارة مكنية، حيث شبه الملك ببيان أو بناء يُربط ويُقوى بالأعوان والمهابة والعدل.

1 - أخرجه مسلم (720).

2 - أخرجه البخاري (5048) باختلاف يسير، ومسلم (793) واللفظ له

(فَصَلَ الْخِطَابِ): مضاف ومضاف إليه. الفصل: مصدر بمعنى الفاعل، أي الخطاب الذي يفصل بين الحق الباطل، أو هو الكلام البليغ الموجز الذي لا يترك لبساً.

الإشراق البلاغية والتدبرية: يرى المحققون كابن القيم أن الحكمة هي "العلم النافع والعمل الصالح"، وفصل الخطاب هو "البيان والقدرة على القضاء وفض الخصومات". هذا التمكين الشديد هو الخلفية البلاغية التي تجعل قصة الخصوم التالية قمة في المفاجأة والابتلاء؛ فمن شدد الله ملكه، يدخل عليه الخصوم بلا إذن!

* (وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ): المقصد والسياق: افتتاح القصة بأسلوب تشويقي مثير يسترعي انتباه السامع ﷺ ليقس تجربة أخيه داود على تجربته. (وَهَلْ أَتَاكَ): استفهام غرضه البلاغي التشويق والتعظيم (وليس الاستفهام الحقيقي).

(الْخَصْمِ): لفظ مفرد يُطلق على الواحد والجمع، وهنا أُريد به الجمع بدليل الفعل بعدها تَسَوَّرُوا.

(إِذْ تَسَوَّرُوا): إذ: ظرف زمان متعلق بـ (نَبَأً). والتسور: تسلق السور (الحائط)، والمحراب هو الغرفة المرتفعة الصافية للعبادة.

إشراق بلاغية: اختيار فعل تَسَوَّرُوا يضفي على المشهد حركة مباغته، تدل على خرق الهيبة والحجاب؛ فداود الملك المهاب المسور ملكه بالحرس، يُفتحم عليه محرابه الخاص من فوق الأسوار!

* (إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ)

المقصد والسياق: تصوير المفاجأة البشرية (الفرع) لبيان أن الأنبياء بشر يعترهم الخوف الطبيعي، ثم هدوء الموقف وبدء المحاكمة.

(فَفَزِعَ): الفاء عاطفة تفيد التعقيب والسرعة، والفرع روع مفاجئ، (خَصْمَانِ): خبر لمبتدأ محذوف تقديره "نحن خصمان". وجاءت بالثنائية رغم أن الفعل السابق جمع تَسَوَّرُوا؛ لأن الخصمين قد يكونان فريقين (كل فريق يضم جماعة)، أو أن المتكلم اثنان وكان معهما أعوان.

(وَلَا تُشْطِطْ): الشطط هو الجور ومجاوزة الحد في الحكم، إشراق بلاغية: تأمل أدب الخصوم الفج في الخطاب رغم طمأننتهم له: (وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا)، فيه غلظة وتوجيه للقاضي (وهو الملك والنبى). وفي ظلال محمد قطب وسيد قطب، يتجلى هنا فقه الابتلاء: الله يضع الحاكم القوي في اختبار نفسي ومسلكي مفاجئ ليختبر كظم الغيظ والحلم وفصل الخطاب تحت الضغط النفسي.

حين يقول العوام (لا تشطط) تكون بفتح الطاء الأولى، ويعنون بذلك: لا تعجل، وفلان به شطط يعنون عجلة، وثمة ارتباط وثيق وبديع بين الكلمتين؛ حيث تلتقي لهجة العوام مع الآية القرآنية في سورة ص عبر مستويين:

الأول صوتي لغوي، العلاقة الصوتية التحول من "تَشْطِطُ" إلى "تَسْطُطُ" ، وقد يدخل فيما يسمى (ظاهرة السَّشْشَنَة والإبدال).

والثاني، دلالي معنوي (الربط بين العجلة ومجازة الحد) قد يبدو في الظاهر أن "العجلة" و"الجور/الظلم" معنيان مختلفان، لكنهما في حقيقة الأمر وجهان لعملة واحدة في اللسان العربي؛ فالعلاقة بينهما هي علاقة سبب بنتيجة: المعنى في سورة ص: "ولا تشطط" أي: لا تجر، ولا تظلم، ولا تجاوز الحد والمدى في الحكم. أما المعنى في لهجة العوام: "لا تسطط" أي: لا تعجل وتسرع. الربط بينهما: المُسرع والعجل في أمره، يخرج دائماً عن حدِّ التأنّي والاتزان، وبالتالي يقع في الخطأ ومجازة الحد (الشطط)؛ فالعجلة مظنة الجور والبعد عن الصواب، والتأني مظنة العدل والإصابة لذا،

عندما يقول الخصمان لسيدنا داود: "فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط"، فكأنهما يطلبون منه: احكم بالحق ولا تعجل في إصدار حكمك قبل أن تستمع للطرفين بالكامل وتتأني؛ لأن العجلة ستؤدي بك إلى الظلم ومجازة الحق.

وبذلك تكون لهجة العوام قد احتفظت باللفظ الفصيح مع تطور صوتي طفيف، واستخدمت الكلمة للتعبير عن "السبب" (العجلة) الذي يؤدي مباشرة إلى "النتيجة" التي حذر منها القرآن (الشطط والجور).

وقد وردت الكلمة في سورة الكهف بمعنى القول الباطل البعيد عن الصواب؛ في قوله تعالى على لسان أصحاب الكهف (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا) [الكهف: 14] أي: قولاً جائراً وكذباً.

* (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً لِوَالِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

المقصد والسياق: عرض المظلمة بلغة تصويرية مؤثرة تثير التعاطف الفوري مع الطرف الأضعف.

(أخي): استعطف وذكر لأصرة الأخوة لتفطيع الظلم؛ فالظلم من الأخ أقسى.

ولهذا قيل: وَظَلَمْتُ دَوِي الْقُرْبَى أَشَدَّ مَضَاضَةً ... عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِّ

(تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً): النعجة هنا تحتل الحقيقة (أنتى الضأن) وهو ظاهر النص، وتحتل الكناية والمثل، وهذا ما سار عليه كثير من المفسرين، لكن المحققين

كابن تيمية وابن عاشور رجحوا بقاءها على حقيقتها كمثل ضربه الخصمان أو قضية حقيقية في رعي الغنم، دون الخوض في الإسرائيليات المكذوبة عن النساء.

(وَعَزَّرَنِي فِي الْخُطَابِ): أي غلبني وقهرني في المحاجة والجدال لبيان قلة حيلة المُدَّعي وقوة وجاه المُدَّعي عليه.

إشراقة بلاغية: المقابلة العددية الصارخة البلاغة بين (99 نعجة) و (نعجة واحدة) تبرز الأنانية البشرية والجشع في أبهى وأقبح صورهما. الجشع لا يقف عند حد، وصاحب الوفرة يتطلع إلى سلب صاحب القلة نزره اليسير.

* (قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١١﴾)

المقصد والسياق: مسارعة داود للحكم بناءً على سماع طرف واحد، ثم انتباهه الفوري إلى أن الموقف كان امتحاناً إلهياً (فتنة)، فيلجأ إلى الإنابة والاستغفار.

(بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ): المصدر هنا مضاف إلى المفعول، أي بأن سأل نعجتك ليضمها إلى نعاجه.

(الْخُلَطَاءِ): الشركاء، (وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ): ما هنا مزيدة لتأكيد القلة وتقليل القليل، (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ): ذهب كثير من المفسرين إلى أن كلمة (وظن) في قوله تعالى: هنا جاءت بمعنى استيقن وعلم، أي: علم داود عليه السلام أنما ابتليناه واختبرناه.

(فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ)، المشهد كله مثال وأنموذج لكثرة وسرعة أوبة نبي الله داود صلى الله عليه وسلم بعد قوله تعالى: (وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۗ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

(وَخَرَّ رَاكِعًا): الخريز يكون للسجود، وعُبر بـ (رَاكِعًا) إما لأن الركوع أطلق ويراد به السجود، أو أنه ركع أولاً ثم سجد، أو هو تعبير عن الهوي والخضوع البدني الكامل.

إشراقة بلاغية: فقه المحاكمة عند ابن عاشور: فتنة داود - عليه السلام - لم تكن خطيئة أخلاقية (كما تزعم الروايات الساقطة)، بل كانت عجلته في إطلاق الحكم بمجرد سماع المدعي وقبل أن يسمع حجة المدعى عليه؛ حيث قال مباشرة: (لَقَدْ ظَلَمَكَ).

ملح ابن تيمية - رحمه الله -: الأنبياء معصومون من الإقرار على الخطأ، فما إن وقعت منه هذه اللفتة القضائية حتى تنبه فاستغفر، فكانت مرتبته بعد التوبة أعلى منها قبلها.

* (فَعَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ): المقصد والسياق: إعلان قبول التوبة، ورفع منزلة داود لإبطال أي توهّم بأن الاستغفار كان لنقص في مرتبته عند الله.

(فَعَفَرْنَا): الفاء تفيد الفورية، مما يدل على سرعة قبول توبة الأواب التائب.

(لَزُلْفَى): اللام هي المرحلة للتوكيد، وزلفى: اسم بمعنى القربى والمكانة العالية، (حُسْنَ مَآبٍ): حسن المرجع والمصير في الآخرة.

إشراقة بلاغية: يركز ابن القيم – رحمه الله- في كتبه تعليقاً على هذه الآية: أنها لبيان أن "التوبة الصادقة تمحو أثر الذنب بل وتبدله حسنات وتورث العبد قرباً وزلفى"، فالله لم يغفر له فحسب، بل أكد على مكانته الاستثنائية عنده بأساليب التوكيد الجميلة الصارمة (وإن.. اللام).

* (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)

المقصد والسياق: التتويج المقاصدي والتشريعي للقصة كلها. هذا هو الدستور الإلهي للحكم والعدالة، الموجه لداود، ومن خلاله لكل حاكم وقاضٍ ومسؤول إلى يوم القيامة.

(فَاحْكُم): الفاء الفصيحة، رتبت الأمر بالحكم بالحق على منصب الاستخلاف.

(فَيُضِلَّكَ): الفاء سببية، والفعل منصوب بأن المضمرة بعدها في جواب النهي (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ)، وقوله (بِمَا نَسُوا): ما مصدرية، أي بسبب نسيانهم وغفلتهم عن يوم الحساب.

إشراقة بلاغية: (في ظلال القرآن) يبرز سيد قطب هنا التحذير المخيف من "الهوى"، فالقضاء والسياسة لا يحتلان العاطفة أو الميل النفسي (حتى لو كان تعاطفاً مع خصم تسور المحراب وبدا مظلوماً دون سماع البينة). الهوى هو المضل الأول عن سبيل الله.

أمّا ابن عاشور وابن تيمية فيربطان الاستخلاف بـ "يوم الحساب". فالذي يمنع الحاكم والقاضي وصاحب السلطة من الجور والشطط ليس القوانين الوضعية، بل استشعار "يوم الحساب". نسيان هذا اليوم هو علة كل ضلال وجور في الأرض.

قلت هنالك ثمة ملاحظة أو وقفة حول "محور الاستخلاف" في سورة البقرة وسور القرآن الكريم؛ فالخيط الناظم الذي يربط بين قصص الأنبياء في القرآن هو انتقال "أمانة الاستخلاف" في الأرض من أمة إلى أمة، ومن نبي إلى نبي.

فهل في الآية الأخيرة من هذا الدرس، وهي قوله تعالى: (ا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)، إشارة إلى استخلاف بني إسرائيل في مملكتهم في زمن نبي الله داود عليه السلام؟

تاريخياً وقرانياً، مرَّ استخلاف بني إسرائيل بأطوار متتابعة: الطور الأول (العهد والرفض)، حيث كُتِبَ عليهم دخول الأرض المقدسة بقيادة موسى -عليه السلام-، لكنهم رفضوا وقالوا: (فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) [المائدة: 24]، فعوقبوا بالتيه أربعين سنة.

الطور الثاني (الدخول الأول): مات موسى وهارون عليهما السلام في زمن التيه، ودخل بهم الأرض المقدسة فتى موسى ونبيه يوشع بن نون -عليه السلام- (وهو الذي حُبست له الشمس حتى فتح بيت المقدس).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيْلَى سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَفِي رِوَايَةٍ غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتَّبِعُنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا وَلَا آخِرُ قَدْ بَنَى بِنِيَانًا وَلَمَّا يَرْفَعُ سَقْفَهَا، وَلَا آخِرُ قَدْ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خِلْفَاتٍ، وَهُوَ مُنْتَظَرٌ وَلَا دَهَاءَ، قَالَ: فغزاه، فأدنى للقريبة حين صلاة العصر، أو قريباً من ذلك، وفي رواية: فلقى العدو عند غيبوبة الشمس، فقال للشمس: أنت مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها عليّ شيئاً، فحُبست عليه، حتى فتح الله عليه، [فغنموا الغنائم]، قال: فجمعوا ما غنموا، فأقبلت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه [وكانوا إذا غنموا الغنيمة بعث الله تعالى عليها النار فأكلتها] فقال: فيكم غلول، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فبايعوه، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فلتبايعني قبيلتك، فبايعته، قال: فلصقت بيد رجلين أو ثلاثة [يده]، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتهم، [قال: أجل قد غللتنا صورة وجه بقرة من ذهب]، قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه في المال، وهو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن الله تبارك وتعالى رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا، وفي رواية) فقال رسول الله عند ذلك: إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنَا الْغَنَائِمَ رَحْمَةً بِنَا وَتَخْفِيفًا، لما علم من ضعفنا [1].

هذا الدخول كان بداية الاستخلاف بالأرض، ولكنه لم يكن "مملكة تمكين سياسي عظمى"، بل كان أشبه بحكم القضاة والأنبياء المتفرقين، وحصلت بينهم قلاقل وانقسامات ونكبات صرعتهم على يد العمالقة والكنعانيين.

الطور الثالث (مملكة التمكين العظمى - عصر داود وسليمان): هذا هو الطور الذي أشارت إليه سورة البقرة في قوله تعالى: (الْمَ تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ

1 - أخرجه أحمد (8315) مقتصرًا على جزئه الأول، والبخاري (3124)، ومسلم (1747)، والبيهقي (12833) بلفظ الرواية الثانية مع اختلاف يسير.

بَعْدَ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) [البقرة: 246]. بعث الله لهم طالوت ملكاً، وكان في جيشه داود الفتى الصغير الذي قتل جالوت (قائد العمالقة).

إذن: داود -عليه السلام- لم يقدم في الدخول الأول للأرض، بل قادهم في طور تأسيس "المملكة الموحدة القوية العظمى" بعد فترة تمزق وضياع. ومن هنا بدأت المملكة الذهبية لبني إسرائيل (مملكة داود ثم سليمان)، وهو الاستخلاف السياسي الأقوى لهم.

ثانياً: زوال المملكة على يد بُخْتَنْصَرَ (نبوخذ نصر البابلي): بعد وفاة سليمان -عليه السلام-، انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى مملكتين ضعيفتين متناحرتين (مملكة إسرائيل في الشمال، ومملكة يهوذا في الجنوب في بيت المقدس). وبسبب كفرهم، وقتلهم الأنبياء، وإفسادهم في الأرض، سلط الله عليهم الجبابرة:

أولاً دَمَّرَ الآشوريون المملكة الشمالية، ثم ثانياً جاء بُخْتَنْصَرَ (نبوخذ نصر الثاني البابلي) واقتحم بيت المقدس في الحملة الشهيرة (السبي البابلي الأول والثاني حوالي 586 قبل الميلاد)، دَمَّرَ الهيكل (المسجد)، وساق بني إسرائيل سبايا إلى بابل، وقضى تماماً على حكم سلالة داود السياسية هناك.

ثالثاً: هذا الربط المنهجي بين (استخلاف آدم -> ثم إبراهيم -> ثم قيام مملكة داود وسليمان -> ثم العقاب الإلهي بالدمار البابلي) هو محط أنظار أساطين التفسير التاريخي والمقاصدي، ومن أبرزهم:

الإمام ابن خلدون (في تاريخه "العبر") أدق من فصل أطوار ملك بني إسرائيل تاريخياً واجتماعياً. ذكر في المقدمة وفي التاريخ كيف تحولت طبيعة بني إسرائيل من "بداوة التيه" إلى "عصبية طالوت وداود" التي شيدت الدولة. وفصل كيف كان داود هو المؤسس الحقيقي للملك السياسي المستقر، وكيف ورثه سليمان، ثم تشرح مقدمته الشهيرة كيف تطرق الهرم والفساد إلى دولتهم حتى سلط الله عليهم "بختنصر البابلي" فأباد خضراءهم، معتبراً ذلك تطبيقاً لسنن العمران الإلهية في سقوط الدول.

كما أن العلامة ابن عاشور في (التحرير والتنوير) -بنزعه التاريخية والمقاصدية الفذة- يربط سياقات سورة البقرة والإسراء ببعضها. يذكر في تفسير سورة البقرة (قصة طالوت وجالوت وداود) أن هذا الحدث كان مبدأ ارتقاء بني إسرائيل إلى أوج ملكهم، وأن قتل داود لجالوت كان فاتحة عهد جديد أهل داود ليكون ملكاً ونبياً مجتمعين، وهو ما لم يحدث لبني إسرائيل بغزارة من قبل. وفي سورة الإسراء، يربط ابن عاشور بين هذا التمكين الداودي وبين "الإفساد الأول" الذي عوقبوا عليه بالسبي البابلي على يد بختنصر وجنوده (الذين وصفهم القرآن بقوله: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ) [الإسراء: 5].

وكذا الإمام البقاعي (في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور") إمام "المناسبات". يرى أن ذكر قصة استخلاف آدم، ثم إبراهيم، ثم بني إسرائيل في سورة البقرة يسير وفق خطة مقاصدية مرسومة: وهي "بيان عزل الأمة الموسوية وإقامة الأمة المحمدية مقامها". ويشير إلى أن الله استخلف بني إسرائيل وآتاهم الملك مع داود وسليمان ليقيموا الحق، فلما نقضوا العهد، سُلبت منهم المملكة تدرجاً حتى جُزوا بالعقاب البابلي (بختنصر)، ليبرهن القرآن لقريش وللمسلمين أن الملك والاستخلاف منوط بالطاعة والاتباع لا بالنسب.

أمّا الأستاذ سيد قطب (في ظلال القرآن) فيأخذ هذا السياق من الناحية الحركية والتربوية؛ فيرى أن سورة البقرة تعرض "موكب الاستخلاف في الأرض". ويبين أن حلقة داود وطالوت كانت نقطة تحول حاسمة؛ حيث غربل الله الجماعة المؤمنة في الابتلاء (النهر) حتى صفت النواة الصلبة التي تستحق الاستخلاف السيادي. ويعقب في ظلال سورة الإسراء والبقرة بأن هذا الملك الذي بدأ مع داود لم يحفظه الأحفاد، فمُزقوا شر ممزق على يد بختنصر البابلي؛ لأن "سنة الله لا تحابي أحداً"، فإذا انحرفت أمة الاستخلاف سُلبت الأمانة منها وسلط عليها أعداؤها.

في إطاره الكلي: سورة البقرة تُسلم راية الاستخلاف للأمة الجديدة (المسلمة) بعد أن استعرضت تجارب الاستخلاف الكبرى. وتجربة داود -عليه السلام- في البقرة كانت ذروة سنام الاستخلاف السياسي والعسكري لبني إسرائيل وبداية عصمتهم ومملكتهم الموحدة، والقرآن يذكرها ليعلم المسلمون كيف تُبنى الممالك بـ "العلم والجسم والصبر"، وكيف تضيع إذا نُسيت موثيق الله وطغى الهوى، كما حدث لهم لاحقاً تحت سنابك خيل جيوش بابل ونبوخذ نصر.

الربط بين آية سورة "ص": (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)، وبين سياق الاستخلاف التاريخي والمقاصدي الذي يبدأ من سورة البقرة وصولاً إلى زوال مملكتهم، هو من أدق مسالك التدبر البياني.

هذا الربط يتجلى في ثلاثة أبعاد رئيسية، فصلّها أساطين التفسير والمقاصد كابن تيمية، وابن القيم، وابن عاشور، وسيد قطب:

الانتقال من "الاستخلاف العام" إلى "الاستخلاف السياسي والتشريعي المطلق"

في سورة البقرة، بدأ مشروع الاستخلاف الإنساني بآدم عليه السلام: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}، وكان هذا استخلاقاً جنسياً عاماً (إعمار الأرض بالبشر). ثم جاء استخلاق إبراهيم عليه السلام كاستخلاق روجي عقدي: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}.

أما مع داود عليه السلام في سورة "ص"، فقد وصل الاستخلاق إلى ذروة تمكينه الدنيوي؛ فلم يقل له "جعلك قومك" أو "جعلناك ملكاً على بني إسرائيل"، بل قال: {جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}.

ابن عاشور ينبه هنا إلى أن هذا النص هو إعلان بتحول داود من مجرد "ملك على شعب" إلى صاحب "خلافة تشريعية عامة" مدعومة بالحق الإلهي، تُشرع للأرض وتدير الحكم بالعدل المطلق، وهي النتيجة المباشرة لنجاح الجماعة المؤمنة في اختبار البقرة (قصة طالوت وجالوت).

كشف "علة السقوط" ومصير المملكة الداودية (ربط ص بسورة الإسراء)، إن النص على استخلاف داود في سورة "ص" لم يأت مفرداً، بل جاء محفوفاً بالشرط والتحذير: {فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}.

هنا نربط مباشرة بين هذا التحذير وبين نهاية مملكتهم على يد بختنصر البابلي:

سيد قطب ومحمد قطب يوضحون أن الله تعالى يضع في هذه الآية "قانون الصيانة وقانون السقوط" للدول. داود -الذي عُصم وأُنب- استحق البقاء والرفق. لكن ذريته وأمه من بني إسرائيل لم يلتزموا بهذا الدستور؛ بل اتبعوا الهوى، وبغى بعضهم على بعض (تماماً كصفة الخطاء التي حذر منها داود في نفس السياق: (وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)).

فلما تركوا الحكم بالحق واتبعوا الهوى، تحققت فيهم الشقير الآخر من آية "ص": فضلوا عن سبيل الله، واستحقوا العذاب الشديد في الدنيا قبل الآخرة. هذا العذاب الدنيوي تمثل في "الإفساد الأول" المذكور في سورة الإسراء، والذي أرسل الله عليهم به بختنصر وجنوده البابليين ليدمروا صرح تلك الخلافة التي أُعطيت لداود.

معيارية الاستخلاف: الأمانة منوطة بالمنهج لا بالنسب (الربط مع البقرة) في سورة البقرة، عندما قال إبراهيم عليه السلام: {وَمِن دُرِّيَّتِي}، جاء الرد الإلهي الحاسم: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}.

آية سورة "ص" تأتي تطبيقاً عملياً صارماً لهذا العهد الإبراهيمي: فابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله- يلمحان إلى أن قصة الخصمين وتصحيح مسار داود الفوري بالاستغفار والإنابة، يثبت أن منصب "الخلافة في الأرض" مشروط بالعبودية التامة لله واليقين بيوم الحساب: {بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

بني إسرائيل ظنوا أن الخلافة والملك حقٌ أبدي لهم بنسبهم إلى داود وسليمان وإبراهيم. فجاءت آية "ص" لتؤكد للنبي ﷺ وللمسلمين (الذين ورثوا الخلافة في البقرة بعد عزل بني إسرائيل) أن الخلافة أمانة؛ داود نفسه افتتن فيها فاستغفر وأُنب ليتداركها، فلما ضيعها أحفاده من بعده بالنكوص عن الحق، سلبوا الملك وسلط عليهم بختنصر البابلي.

الاستخلاف الذي بُشِّر ببدء طوره السياسي العظيم في سورة البقرة (بقتل داود عليه السلام لجالوت)، أعلن دستوره وشروطه العليا في سورة ص ب (إِنَّا جَعَلْنَاكَ

خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)، فلما نُقِضَ هذا الدستور من بني إسرائيل باهتزاز ميزان الحق واتباع الهوى، حَلَّتْ العقوبة التاريخية المُدمِّرة بمملكتهم على يد نبوخذ نصر، لتنتقل أمانة الاستخلاف في النهاية إلى الأمة المحمدية التي قيل لها في سورة البقرة ذاتها: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ).

الخلاصة: الآيات تقدم للنبي ﷺ وللأمة نموذجاً متكاملًا: يبدأ بالصبر، ويمر بالاستغراق في تسبيح الله وتأمل كونه، ويتسلح بالحكمة وفصل الخطاب، ويمحص بالابتلاء البشري والرجوع السريع عن الخطأ (الأوب)، وينتهي بالاستخلاف القائم على مجابهة الهوى وإقامة الحق مستحضراً عين الرقيب الخالق ويوم الحساب العظيم.

* (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۗ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29) وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۗ نَعْمَ الْعَبْدُ ۗ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتِ الْجِبَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ ۗ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (33) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ۖ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ (34) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (35) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَأَخْرَيْنَا مُقْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (39) وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ (40) وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۗ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۗ نَعْمَ الْعَبْدُ ۗ إِنَّهُ أَوَّابٌ (44) وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۗ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (48))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من سورة ص تمثل مدرسة متكاملة في التربية الربانية، والموازنة السننية في الكون، وعرض النماذج البشرية العليا (الأنبياء) في معارج العبودية والابتلاء.

* (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۗ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ)

السياق والمقاصد: تأتي هذه الآية بعد ذكر قصة داود عليه السلام وفصله في الخصومة والتحذير من اتباع الهوى (يا داوودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ). الرابط هنا - كما يذكر البقاعي في نظم الدرر - هو أن العدل

الإنساني مستمد من الحق الكوني الذي قامت عليه السموات والأرض؛ فالكون بني على الحق، وأمّا الظلم والعبثية فإنهما يتنافيان مع طبيعة الخلق.

(بَاطِلًا): نائب عن المفعول المطلق (أي: خُلِقَ باطلاً)، أو حال من المفعول به (أي: مبطلين أو عابثين).

تقديم النفي بـ (وَمَا) والعموم في (وَمَا بَيَّنَّهُمَا) يستغرق كل ذرة في الوجود لينفي عنها العبثية.

لمحة بلاغية: ابن القيم (في بدائع الفوائد) يرى أن نفي الباطل يتضمن إثبات الغاية والحكمة والجزاء، فلو كان الخلق باطلاً لاستوى المحسن والمسيء.

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا): الإشارة بـ "ذلك" للبعيد للتحقير من هذا الفكر. وسمّاه "ظناً" لأنه ليس علماً ولا يستند إلى برهان.

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ): الفاء سببية، والويل وعيد شديد، وترتيب الوعيد بالنار على هذا "الظن" يوضح أن جحود الحكمة الكونية يقود حتماً إلى جحود الآخرة والوقوع في العذاب.

* (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)

السياق والمقاصد: انتقال من الدليل الكوني الإجمالي (حكمة الخلق) إلى الدليل العقلي الأخلاقي (حكمة الجزاء). يوضح سيد قطب (في ظلال القرآن أنّ "العدالة التقديرية في أهواء البشر لا بد أن تستند إلى العدالة المطلقة في بناء الكون".

(أَمْ): أم المنقطعة، وهي لإضراب انتقالي للإنكار والاستفهام الإنكاري، جاءت هنا للمقابلة البلاغية بين: (آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) ضد (المُفْسِدِينَ)، وبين (الْمُتَّقِينَ) ضد (الْفُجَّارِ).

لمحة البلاغية: ابن عاشور في التحرير والتنوير يرى في إعادة الاستفهام بـ {أَمْ نَجْعَلُ} تكراراً لتوكيد الإنكار وتفريع التقسيم (عام وخاص)، فالمؤمنون والصالحون يقابلهم المفسدون، والمتقون (درجة أعلى) يقابلهم الفجار (المبالغون في الفسوق).

هذه الآية هي عمدة الفكر العقدي عند ابن تيمية في إثبات "التحسين والتقيح العقليين" والحكمة الإلهية؛ إذ يستحيل في العقل والحكمة الاستواء بين الضدين.

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ): السياق والمقاصد: بعد إثبات الحق في الخلق والجزاء، جاء ذكر "المنهاج" الذي يربط الإنسان بهذا الحق، وهو القرآن.

(كِتَابُ): خبر لمبتدأ محذوف تقديره "هذا كتاب"، والتنكير للتعظيم الشديد.

(مُبَارَكٌ): نعت لكتاب، والبركة النماء والزيادة والدوام.

(لِيَدَّبَّرُوا): اللام للتعليل، وعُدِّي الفعل هنا بذاته إشارة إلى يسر تدبر القرآن كما في قوله تعالى (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) [القمر:22]، دعوة من ربنا لتدبر القرآن والاعتبار، والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى قد سهل ألفاظ القرآن للحفظ، ويسر معانيه للفهم لمن أراد أن يتعظ به، والاسنفهام في قوله {فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} هو للتحفيز، أي: فهل من طالب علم أو متعظ فيُعان عليه؟

لمحة بلاغية: ابن القيم يقف طويلاً عند قوله تعالى: (لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) مؤكداً أن قراءة القرآن بتدبر هي أصل صلاح القلب، والتدبر هو تحديق النظر العقلي إلى غايات الألفاظ ومراميهما.

الانفغات من الخطاب (إِلَيْكَ) (لِلنَّبِيِّ ﷺ) إلى الغيبة (لِيَدَّبَّرُوا... وَلِيَتَذَكَّرَ) (للأمة)؛ لنقل التكليف بالتدبر إلى سائر العباد.

قصر التذکر على (أُولُو الْأَلْبَابِ) (أصحاب العقول الصافية)؛ لأن غيرهم تمر عليه الآيات فلا تحرك فيه ساكناً، وأيضاً هو للتحفيز وثناء لكل من يتدبر القرآن.

* (وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ): السياق والمقاصد: الشروع في ذكر قصص الأنبياء كأمثلة تطبيقية لـ "أولي الألباب" الذين تدبروا وتذكروا. وبدأ بسليمان تالياً لأبيه داود المذكور سابقاً في السورة.

(وَوَهَبْنَا): فعل يدل على العطاء بلا مقابل، امتناناً من الله، (نِعْمَ الْعَبْدُ): أسلوب مدح، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره (سليمان).

(أَوَّابٌ): صيغة مبالغة من (أَبَ يَأْبُ) أي كثر الرجوع والتوبة إلى الله، فهو ابن أبيه صلى الله عليهم وسلم.

لمحة بلاغية: يلاحظ ابن عاشور - رحمه الله - لطيفةً بلاغية: أن الله قال في داود سابقاً {نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} وقال في سليمان العبارة نفسها؛ لبيان أن النعمة والمُلك لم يشغلا الابن عن طاعة ربه كما لم يشغلا الأب، فالوراثة هنا وراثة دين وعبودية قبل أن تكون وراثة مُلك.

كما أنّ في قوله تعالى: (وَوَهَبْنَا لِذَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) يكمن تلميح وتربية إلهية للعباد، حيث اقترنت "هبة الولد" بالثناء على المولود بعبوديته وطاعته، مما يعني أنّ من تمام نعمة الله على العبد أن يرى ذريته صالحين عابدين منيبين إلى الله لربهم، وعليه حينئذ أن يزيد في شكر الله على نعمة صلاح الذرية، فصلاح الأبناء هو الامتداد الحقيقي لشكر الآباء.

وقد استنبط هذا المعنى وصرّح به عدد من كبار المفسرين والعلماء، ومن أبرزهم: الإمام ابن كثير: الذي أشار في تفسيره عند هذه الآية إلى أن هبة الولد الصالح (النبي) هي من أجلّ النعم، وأن شكر هذه النعمة يتجلى في كثرة الإنابة والطاعة.

كما وضح الإمام ابن القيم - رحمه الله - في كتبه أن الشكر الحقيقي على النعم العظيمة (كنعمة الولد) يوجب على الوالدين الاستعانة بالله وكثرة دعائه والتضرع إليه ليكون الأبناء عوناً على الطاعة، وأن يوفقههم ليكونوا قدوة صالحة للمتقين: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِمُنْتَقِينَ إِمَامًا) [الفرقان: 74].

كذا الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -: صرّح في دروسه وتقريراته (مثل شرحه لقصة داود وسليمان في سورة ص) بأن الأولاد هبة من الله، ويتفرع عن هذا وجوب شكر الله تعالى على هذه النعمة، وأن صلاح الذرية هو من أجلّ ثمار هذا الشكر.

كذا غيرهم من أئمة التفسير كابن جرير الطبري والبخاري: حيث قرروا في توجيههم لقوله: (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) أن الثناء على الابن بصلاحه وأوبته هو إشادة بفضل الله وشكره على تربيته وإصلاحه، ليكون قدوة للشاكرين.

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْغِيَاثُ): (إِذْ): ظرف زمان متعلق بـ (أَوَّابٌ) أو بفعل مقدر (اذكر).

(الصَّافِنَاتُ): الخيل التي تقف على ثلاث قوائم وترفع طرف حافر الرابعة، وهو موقف يدل على نبالتها وأصالتها، و(الْغِيَاثُ): جمع جواد، وهي الخيل السريعة الجري.

لمحة بلاغية: سيد قطب - رحمه الله - يرسم بظلال الكلمات مشهداً حركياً رائعاً لاستعراض الخيل القوية الأنيفة في وقت "العشي" (قبيل الغروب)، حيث يضيء هذا الوقت سكوناً يبرز حركة الخيل وجمالها. وكان هذا العرض لغرض جهادي عسكري لحماية المملكة وتوطيد الحق.

(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)، قوله تعالى: (أَحْبَبْتُ حُبًّا): ضمنت لفظة (أَحْبَبْتُ) معنى (أَثَرْتُ) فعدها بـ {عَنْ}. و (الْخَيْرِ) هنا يراد به "المال" أو "الخير" (والعرب تسمي الخيل خيراً).

وقد قرأها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مصحفه (قراءة تفسيرية أو مروية) بلفظ: (إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ الْخَيْلِ) بدلاً من (حُبَّ الْخَيْرِ) لتوضيح المعنى المقصود، روى ذلك علماء التفسير المأثور: وعلى رأسهم ابن جرير الطبري في تفسيره "جامع البيان"، وابن عطية في "المحرر الوجيز"، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن، وعلماء القراءات الشاذة، وعلماء اللغة والغريب.

(تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ): الضمير مستتر يعود على الشمس (ولم يجر لها ذكر، لكن السياق ودلالة "العشي" والحجاب تدل عليها بلاغة وإيجازاً).

لمحة بلاغية: ابن تيمية - رحمه الله- وعلماء التحقيق يدفعون عن الأنبياء تهمة تضييع الصلاة المعقدة. التفسير الأدق سياقاً وبلاغة: أن سليمان شغل بهذا العرض الجهادي، حباً منه لـ "الخير" الذي يعين على إعلاء كلمة الله، وعبر بـ (عَنْ ذِكْرِ رَبِّي) أي: ناشئاً عن أمر ربي وذكره، حتى غابت الشمس (أو توارت الخيل في اسطبلاتها).

* (رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)، مشهد سليمان هذا كله كذلك مثال وأنموذج لكثرة وسرعة أوبته صلى الله عليه وسلم بعد قوله تعالى: (نعم العبد إِنَّهُ أَوَّابٌ).

(رُدُّوَهَا): أمر غائب موجه للخدم أو السائسين، (طَفِقَ مَسْحًا): طفق من أفعال الشروع، و"مسحاً" مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مفعول به لـ طفق بتأويل الفعل، و(بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ): السوق جمع ساق، والأعناق رقاب الخيل.

لمحة بلاغية: ذهب جمهور المفسرين من السلف والخلف إلى أن معنى "مسحاً" بالسوق والأعناق" في قصة نبي الله سليمان (عليه السلام) هو ذبحها وعقرها بالسيف، وذلك تقرباً إلى الله وكفارة لما فاته من صلاة العصر بسبب انشغاله بعرض الخيل والجهاد. ومن أبرز من قال بهذا القول وفسرها بالذبح: الحسن البصري وقتادة والسدي ومقاتل بن سليمان والإمام الطبري (في أحد قوليه المختار لديه، كما رجحها) الإمام ابن كثير، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام ابن القيم - رحمهم الله جميعاً، وقاله أبو عبيدة معمر بن مثنى التميمي، وهو اختيار أكثر المفسرين، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولم يذكر في تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) غير هذا القول، وذكر عنهم قولهم: وكان مباحاً له، لأن نبي الله لم يكن يقدم على محرم، ولم يكن يتوب عن ذنب بذنب آخر [1].

وثمة تفسير آخر مقابل، حيث ذهب بعض المفسرين (ومنهم من عزاه لابن عباس رضي الله عنهما كذلك) إلى أن المعنى هو المسح باليد إكراماً لها وحباً لها لكونها خيل جهاد.

* (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ): السياق والمقاصد: الابتلاء سنة جارية حتى على الأنبياء أصحاب الملك العظيم.

(وَلَقَدْ): اللام موطنة للقسم، و"قد" للتحقيق، مما يدل على أهمية وعظم هذه الفتنة، (جَسَداً): مفعول به ثانٍ لـ {أَلْقَيْنَا}. والجسد: الجسم الذي لا روح فيه.

1 - انظر: تهذيب تفسير البغوي (معالم التنزيل) (ص1022).

لمحة بلاغية: ذهب ابن تيمية - رحمه الله - وغيره من المحققين إلى أن التفسير الأصح لغويًا وسياقيًا: أن "الجسد" هو ولد سليمان (السَّقَط) الذي وُلد مشوهًا كأنه جسد بلا روح، وكان قد تمنى أن يلد مئة فارس يجاهدون في سبيل الله ولكنه لم يقل "إن شاء الله" (كما ثبت في الصحيح)، فألقي هذا الجسد على كرسيه ليتذكر عجزه البشري أمام قدرة الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال سليمان بن داود: لأطوفنَّ اللَّيْلَةَ على سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللَّهِ، فقال له صاحِبُه: إن شاء الله، فلم يَقُلْ، ولم تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحَدُ شِقْيَيْهِ، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو قالها لَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللَّهِ. قال شُعَيْبُ وابنُ أَبِي الزُّنَادِ: تَسْعِينَ، وهو أَصَحُّ [1].

(ثُمَّ أَنَابَ): "ثم" للتراخي الرتبي وعلو منزلة الإنابة والرجوع السريع إلى الله بالاعتراف بالتقصير.

* (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

بدأ بطلب المغفرة (رَبِّ اغْفِرْ لِي) قبل طلب الملك (وَهَبْ لِي)؛ تقديمًا للوسيلة الروحية وتطهيراً للنفس قبل نيل المطلب الدنيوي، ولذا قيل في القاعدة السلوكية الأخلاقية: (التخلية قبل التحلية).

(لَا يَنْبَغِي): الجملة نعت لـ (مُلْكًا)، والابتغاء هنا الامتناع والتفرد الإعجازي ليكون علامة لنبوته.

هذه الآية الكريمة من سورة ص (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) تمثل الذروة في خطاب الدعاء واليقين بعباء الله وعظيم فضله وقدرته سبحانه، (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [يس:82]، وقال سبحانه: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [البقرة:117]، وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **أنا لا أحمل هم الإجابة،**

(لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي)، يربط البقاعي في نظم الدرر السورة بمقصدها وهو "صاد" التي ترمز لصدق النبي وتثبته. سياق الابتلاء: جاء الدعاء بعد فتنة وابتلاء جسيم (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ).

سر الترتيب: قدم استغفار الذنب (قال رب اغفر لي) على طلب الملك (وَهَبْ لِي مُلْكًا)؛ لأن طهارة الروح شرط لتمكين الأرض.

التناسب: التعقيب بطلب ملك لا يتبدد هو رد فعل على الملك المؤقت الذي كاد يزول بالفتنة.

بنية الجملة تفيد الشمول والقطعية في نفي المماثلة، (لا) النافية للجنس هنا تعمل عمل إن، وتفيد نفي الاستحقاق نفيًا عامًا قاطعًا.

مادة (بغى): "ينبغي" مطاوع الفعل "بغى" بمعنى طلب، والمعنى: لا يتأتى ولا يسهل ولا يستقيم لأحد.

عموم النكرة: "أحد" نكرة في سياق النفي تفيد الشمول المطلق للبشر والجن. شبه الجملة: (من بعدي) ظرفية زمانية تفيد امتداد هذا النفي إلى قيام الساعة.

إشراقة بلاغية تتجلى هنا في النظم القرآني التي يقتنصها ابن عاشور في (التحرير والتنوير): القصر والجرأة بالحق: حصر المزية فيه ليس حسدًا، بل هو أسلوب تخصيص لإظهار التميز الإلهي في العطاء.

الكناية: (لا ينبغي لأحد) كناية عن عظمة هذا الملك، بحيث يعجز أي نظام بشري عن محاكاته.

التذييل بالفاصلة: (إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) تعليل للطلب، وتأکید بـ "إن" وضمير الفصل "أنت" لحصر الوهية المطلقة لله سبحانه.

القراءة المقاصدية: يرى ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله - أن دعاء الأنبياء منزله عن حظوظ النفس والدنيا، وإنما يلحظ الإعجاز في مقصد طلب سليمان عليه السلام ملكًا معجزًا يكون آية لصدق نبوته، وليس ترفًا دنيويًا.

فهو به الله لإقامة الحجة، إخضاع الجن والريح دليلًا حسيًا وماديًا قاطعًا على قدرة الخالق سبحانه.

وما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا التوحيد الخالص: وإثبات أن النعم، وإن عظمت، لا تلهي العبد الأبواب عن ربه، فما كان إلا أن أثنى عليه الله سبحانه ذلك الثناء العطر (نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

يوضح ابن تيمية - رحمه الله - أن سليمان طلب ملكًا يتميز به ليقوم به الدين، لا ليعلو به في الأرض.

ويضيف ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين: أراد سليمان أن يكون ملكه خاصًا ليدل على خصوصية الصلة بالله، ممثلًا لمقام العبودية التي لا تضره معها وفرة الدنيا.

أما ابن عاشور - رحمه الله - فيبين (الأثر الحضاري والبياني) أن "لا ينبغي" ليست تشريعاً يمنع الناس من السعي للملك، بل إخبار عن قدر مقدور بقطع نظائر هذا الملك (تسخير الريح والجن) عن البشر تبييناً للمعجزة.

أما سيد قطب ومحمد قطب - رحمهما الله - فيشيران إلى (الظلال والعمق النفسي)، حيث أشار سيد قطب (في ظلال القرآن) إلى أن خلو قلب سليمان من الجاه بعد الإنابة جعله يطلب ملكاً لا يشاركه فيه بشر، ليكون متمحوراً حول الله وحده.

ويربط محمد قطب ذلك بواقعا المعاصر مؤكداً أن القوة المادية (الطاقة والتكنولوجيا الكونية في ربح وحن) إذا لم تقترن بالاستغفار (اغفر لي) تحولت إلى طغيان مدمر.

خلاصة القول: العبارة ليست حجراً على فضل الله على الآخرين، بل هي طلب لآية نبوية فريدة ترتبط بخصوصية رسالة سليمان عليه السلام، لتظل شاهدة عبر التاريخ على أن المادة والكون بكل طاقتهما يخضعان لأمر الله ولمن أخلص له العبودية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إِنَّ عَفْرِيئًا مِنَ الْجِنَّ تَقَلَّتْ الْبَارِحَةَ لَيَقْطَعَ عَلَيَّ صَلَاتِي، فَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْهُ فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُرْبِطَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي، فَرَدَدْتُهُ خَاسِئًا [1].

* (فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ)

الفاء في (فَسَحَّرْنَا) عاطفة سببية، تدل على سرعة الاستجابة لربطها بالدعاء السابق، (رُحَاءَ): حال من الريح، أي منقادة لينة سريعة لا تززع، (حَيْثُ أَصَابَ): أي حيث أراد وقصد.

(وَالشَّيَاطِينَ): معطوف على "الريح"، (كُلُّ بِنَاءٍ): بدل بعض من كل أو بدل تفصيل للشياطين، (مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ): حال من "آخرين"، والأصفاة هي القيود والسلاسل.

لمحة بلاغية: تنقل الآيات القارئ من عالم الطبيعة اللطيف (الريح الرخاء) إلى عالم الغيب المسخر (الشياطين: بناؤون وغواصون ومقيدون). يذكر محمد قطب في ظلال العقيدة أن هذا التسخير يمثل "قمة الهيمنة الإنسانية المأدونة من الله لخدمة

العمران والحق"، حيث يعمل المتمردون (الشياطين) في البناء والغوص قسراً تحت إمرة نبي الله.

* (هُدَا عَطَاؤُنَا فَاْمُنُّنْ أَوْ أْمْسِكْ بِعَيْرِ حِسَابٍ): (هُدَا): اسم إشارة للمسخرات المذكورة، تعظيماً لها.

(بِعَيْرِ حِسَابٍ): الجار والمجرور في موضع الحال من الفاعل أو المفعول، أي: معطى لك دون محاسبة أو تضيق، أو أعطيت أنت من شئت بغير حرج عليك.

لمحة بلاغية: هذا تفويض إلهي مطلق لسليمان عليه السلام؛ لأنه وصل إلى مرتبة من العبودية والأمانة جعلت مشيئته تابعة لمشيئة الله، فلا يتصرف في الملك إلا بالحق.

* (وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ): السياق والمقاصد: لئلا يُظن أن الملك الدنيوي العظيم ينقص من أجر الآخرة، جاءت هذه الآية لتوكيد مكانته الأخروية.

(وَإِنَّ لَهُ): تقديم الخبر شبه الجملة (لَهُ) للاهتمام والتوكيد والتعظيم بـ (عِنْدَنَا).

(لَزُلْفَىٰ): اللام المزحلقة للتوكيد، والزلفى هي القربى والمكانة الرفيعة.

لمحة البلاغية: هذا المعنى يذكرنا في دعاء آسية امرأة فرعون: (قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ) [التحریم: 11] حيث أشار ابن القيم في لطائف الإشارات، وغيره إلى علو همتها في الدعاء وتقديم جواره سبحانه على كل نعيم، وهنا الله وهب سليمان ذلك، لعله لكثرة لهجه بذلك كأن هذا المعنى أصح متعارفاً عليه بعد ذلك، والله أعلم.

ويقول البقاعي: إن الله تعالى ختم قصة سليمان بما ختم به قصة أبيه داود تلازماً في الفضل والأوبة، وتنبهياً على أن جزاء الشاكرين على النعم كجزء الصابرين على المحن.

* (وَإِذْ نَادَىٰ يَبُوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) السياق والمقاصد: الانتقال بالطباق والتقابل بين نموذج (سليمان: العبد الشاكر في قمة السراء والمُلْك) ونموذج (أيوب: العبد الصابر في قمة الضراء والمرض). وكلاهما يشتركان في وصف (نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

(عَبْدَنَا): إضافة أيوب إلى ضمير العظمة تشريف وتكريم له في موطن ابتلائه.

(بِنُصْبٍ): النُصْبُ (بالضم) والوجع والتعب الشديد.

لمحة بلاغية: يقف ابن القيم عند أدب الأنبياء في الدعاء: أيوب لم يقل "يا رب أنت أصبنتني بالمرض"، بل قال (مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ)؛ إسناداً للشر والضر للأسباب البعيدة (أو وسوسة الشيطان وإتعبه لنفسه بنوح أهله عليه) تأدباً مع الله تعالى، رغم

أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وهذا دأب الأنبياء، كما قال يوسف عليه السلام: (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي) [يوسف:100] فنسب الخير لله، ونسب النزغ للشيطان، يقين بأن تدبير الله الخفي يحمل الخير دائماً.

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۗ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ): (ارْكُضْ): اضرب الأرض برجلك، (مُغْتَسَلٌ): اسم مكان للاغتسال، أو مصدر ميمي، حيث نبع المغتسل من تحت قدمية بعذا الضرب اللطيف بأمر الله، ثم وصف الماء بـ (بَارِدٌ) و (شَرَابٌ) إشارة إلى الشفاء الخارجي (للجلد) والداخلي (للجوف).

لمحة بلاغية: يشير سيد قطب – رحمه الله- إلى السرعة المفاجئة في الفرج التابع للصبر؛ فضربة رجل واحدة من العبد الضعيف المريض يتفجر منها نبع الشفاء الإلهي، تعليماً للعباد بضرورة بذل "السبب" مهما كان صغيراً، لينتزل الشفاء والفرج من مسبب الأسباب، قلت: كما أمر سبحانه مريم عليها السلام في طلق الولادة أن تهز جزع النخلة (وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا) [مريم:25].

(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ)، (وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ): الواو عاطفة، ومثلهم معطوف على أهله، تفيد مضاعفة العطاء تطيباً لقلبه. (رَحْمَةً): مفعول لأجله، أو حال.

لمحة البلاغية: تنتهي المحنة فتنقلب منحة مضاعفة. ووصفت بـ (ذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ) أي تذكرة لأصحاب العقول بأن عاقبة الصبر دائماً هي الفرج واليسر والتعويض الإلهي الجميل.

* (وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا...)، (ضِعْفًا): حزمة صغيرة من حشيش أو شماريخ النخل (مئة عود).

(وَلَا تَحْنُتْ): الحنث هو الخلف في اليمين (وكان قد حلف ليضربن امرأته مئة جلدة لأمر أنكره عليها في مرضه).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " وقوله : (وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ) : وذلك أن أيوب عليه السلام كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته.

قيل: إنها باعت ضفيرتها بخبز، فأطعمته إياه، فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، وقيل: لغير ذلك من الأسباب " [1].

لكن هذا السبب لم يثبت بنص من الوحي؛ والظاهر أنه مما نقله أهل العلم عن أهل الكتاب.

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى: "والتقدير: وقلنا خذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث . وهذا إفتاء برخصة!!

وهذا له قصة أخرى، أشارت إليها الآية إجمالاً ؛ ولم يرد في تعيينها أثر صحيح "[1].

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا): جملة تعليلية مؤكدة بـ "إن"، تمدح صبر أيوب الوجودي التاريخي.

لمحة البلاغية: (وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ) هذه أصل من أصول الفقه والشرع في "الرخص والمخارج الشرعية" التي تحمي الإنسان من الحرج دون تضييع الحقوق، وهي رحمة من الله بزوجة أيوب الوفية، وتكريم لأيوب ألا يحنث في يمينه.

الختام بـ (يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) يماثل تماماً ختام قصة سليمان، وقوله سبحانه عن داود (إنه أواب)، لتلقي قمة السراء بقمة الضراء في ميزان العبودية الصادقة للوهاب التواب.

(وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ...)، السياق والمقاصد: الانتقال إلى عصب الأنبياء وجيل التأسيس الأول (المدرسة الإبراهيمية) لبيان صفاتهم الإيمانية والعملية الفذة.

(أُولِي الْأَيْدِي): الأيدي، يسميه البلاغيون: مجاز مرسل (أو استعارة) عن "القوة في طاعة الله وتنفيذ أمره"، (وَالْأَبْصَارِ): مجاز عن "البصيرة النافذة والعلم الدقيق بحقائق الدين".

(بِحَالِصَةِ ذِكْرِي الدَّارِ): مضاف ومضاف إليه، أي خصلة خالصة ميزتهم، وهي مداومة تذكر الدار الآخرة والعمل لها، وقيل: تذكير الناس بالآخرة.

لمحة بلاغية: ابن تيمية يعلق على (أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) بأن كمال الإنسان يكون بـ "قوة الإرادة في الحق" (الأيدي) و "كمال العلم والمعرفة" (الأبصار)، وضدهما العجز والجهل.

1 - ابن عاشور: التحرير والتنوير ("التحرير والتنوير. (???) ")

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن (لو) تفتح عمل الشيطان [1].

(لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ): صيغة جمع مذكر سالم للمفعول (المصطفى)، والتوكيد بـ "إن" واللام يدل على منزلة الاختيار والاجتباء الإلهي المطلق لهم لشدة إخلاصهم.

* (وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ)، السياق والمقاصد: الختام بالإجمال والتعميم لهذه الكوكبة الطاهرة لربط أمة النبي محمد ﷺ بهذا الخط الممتد من الأخيار، تشبيهاً وتثبيتاً له وللمؤمنين معه.

(وَكُلٌّ): التنوين هنا تنوين عوض عن مضاف إليه محذوف، تقديره: (وكلهم من الأخيار).

(مِنَ الْأَخْيَارِ): جمع (خَيْرٍ) أو (خَيْرٍ)، وهو دلالة على تمكن الخيرية الفاضلة في ذواتهم وصفاتهم.

لمحة بلاغية: ما يسميه البلاغيون الإيجاز بالحذف في هذه الآية بذكر الأسماء المتعاطفة دون تفصيل لقصصهم (بالمقارنة مع داود وسليمان وأيوب) يرجع إلى أن السورة حققت هدفها السلوكي بضرب الأمثال الكبرى (الشكر في السراء، والصبر في الضراء)، فجاء هذا الختام ليوحي بأن موكب الأنبياء عريض، وصفاتهم وإن تنوعت، فإنها تلتقي وتصب في مصب واحد: الخيرية المطلقة والعبودية الخالصة لرب العالمين.

قوله تعالى: (ووهبنا لداود سليمان)، وقوله سبحانه: (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم)، وقوله سبحانه في سورة الأنبياء (فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء: 90]. وكذا قال عن إبراهيم عليه السلام: (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا) [الأنعام: 84]. الدلالة اللسانية والمعجمية: الهبة في اللسان العربي هي التملك بلا عوض [المعجم الوسيط]، وهي في القرآن أعمق وأشمل؛ فهي تملك النبوة، والحكمة، وامتداد النسل الصالح. إنها استجابة فورية سريعة لحال الافتقار إلى الله، كما في قوله عن زكريا: (فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ) [الأنبياء: 90].

1 - أخرجه مسلم (2664) وابن ماجه (79)، وأحمد (8829)، وأبو يعلى (6251) جميعهم بلفظه.

تشكل هذه "الموهوبات" نسقاً قرآنياً بديعاً؛ فهي خيط ناظم من الآيات، يتجلى فيها سرّ القدرة الإلهية، والامتداد العضوي لرسالة الأنبياء. لفهم العلاقة بين (سليمان)، و(أهل أيوب)، و(يحيى) عليهم السلام من خلال بلاغة القرآن الكريم، ومقاصده، وسياقه، يمكن استجلاء القراءة التالية: ١

التقاطع بين "سليمان" و"يحيى" وراثته النبوة: كلا النبيين (سليمان ويحيى) يمثلان امتداداً جينياً ورسالياً لأبائهما. ففي وراثته سليمان لداود يقول تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ) [النمل: 16]، وهذا يفسر كيف أن الهبة هنا تتجاوز مجرد الولد إلى توريث العلم والملك والنبوة. وفي المقابل، وُهب يحيى لذكرياً ليكون وارثاً يخشى الموالي من بعده، قال تعالى: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ) [مريم: 5-6].

الخيط الرابط بين الموهوبات: هو قوله تعالى في سورة الأنبياء (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۗ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) [الأنبياء: 90]، وهنا في هذه السورة يكرر سبحانه عن كل بني منهم (إنه أواب)،

ينظر سيد قطب - رحمه الله - (في ظلال القرآن) إلى مسألة الهبة من زاوية إيمانية حركية؛ فالولد الصالح يأتي كثمرة للارتباط الوثيق بالله، والدعاء الدائم "رغباً ورهباً". فالعلاقة هنا بين الموهوبات هي علاقة الاستجابة الربانية لمن أحسن العبادة سورة الأنبياء -.

أمّا ابن تيمية وابن القيم - رحمهما الله - فيركزان على مفهوم (الأوبة) و(الإصلاح). فكما وُهب سليمان لداود، أتى عليه الله بالأوبة، وكما وُهب يحيى لذكرياً، اقترنت الهبة وإصلاح الزوجة بالمسارة في الخيرات والتضرع لله رغباً ورهباً، قال تعالى: (فاستجبنا له ووهبنا له يحيى)، مما يدل على مقصد قرآني عظيم، وهو أن صلاح الذرية والبيت والامتداد الرسالي يستوجب إصلاح "المحاضن الأولى" وإصلاح النفس قبل ذلك، وأن الله إذا وُهب عطاءً، أتمه بهداية وبركة، وهذا قريب من معنى قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) [الفرقان: 74].

* (هُدَا نِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (49) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتِنَةً لَّهُمْ الْأَبْوَابُ (50) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (51) ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (52) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (53) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54) هَذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (55) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (56) هَذَا فَلْيُدْفُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (57) وَآخِرُ مِنْ سُكُلِهِ زَوْجٌ (58) هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحِمٌ مَعَكُمْ ۗ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۗ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۗ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۗ فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا

أَمْ رَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (63) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (64) قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (65) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (66) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (69) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (70) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي ۗ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (75) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (76) قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ (77) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (78) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ (79) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (80) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (81) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (84) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (85) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (86) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (88))

هذه الآيات الكريمة في هذا الدرس من أواخر سورة ص تمثل خاتمة السورة وحصادها المحكم، وهي تحتوي على مقعين

المقطع الأول: ثنائية الجزاء وتباين المصير:

(هَذَا ذِكْرٌ ۖ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ)، السياق والمناسبة (البقاعي): بعد أن استعرضت السورة نماذج من قصص الأنبياء (داود، سليمان، أيوب، إبراهيم، إسحاق، يعقوب، إسماعيل، اليسع، ذو الكفل)، جاء هذا الفاصل التقييمي. "هذا ذكر" أي: هذا الذي سلف ذكره شرف صيبت وذكرى حية.

الإشارة بـ "هذا" لتعظيم المقرّر السالف، الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، وقوله سبحانه: (وإن للمتقين لحسن مآب) عطف قصة على قصة، وأكّدت الجملة بـ "إن" و"اللام" المرحلة لتثبيت الحقيقة في نفوس المكذبين بيوم الدين.

(هذا ذكر).. كلمة تلخص قيمة هذا القرآن وقيمة هذه القصص؛ إنها تذكير وهداية، ثم تبدأ الرحلة إلى المآب، والمآب هو المرجع، والتعبير بـ "حسن مآب" يشي بالطمأنينة واليسر والجمال في المنقلب.

ثم فسره سبحانه بقوله: (جَنَاتٍ عَدْنٍ مُّفْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ)، "جَنَاتٍ" بدل من "حُسْنِ مَّآبٍ" أو عطف بيان له. و"مُفْتَحَةً" حال من جنات، وجاءت بصيغة اسم المفعول لتأكيد الفعل. "الأبواب" نائب فاعل لاسم المفعول (مفتحة).

إشراقه بلاغية: تقديم "لهم" على "الأبواب" يفيد الاختصاص والعناية؛ أي أن الأبواب تفتح لأجلهم وبمجرد قدومهم كرامه لهم، أو هي مفتوحة أبوابها تترين لهم

في كل حين بأعمالهم، وفي "تفتيح الأبواب" إشارة أمن وأمان، إذ لا يُغلق الباب إلا لخوف أو وحشة، والجنة دار السلام والحرية المطلقة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: الجنة ما بناؤها؟ قال: لينة من فضة ولينة من ذهب، وملاطها المسك الأذفر، وحصابؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران من دخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم ثم قال: ثلاث لا تُردُّ دعوتهم، الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الربُّ تبارك وتعالى: وعزتي لأنصرتك ولو بعد حين [1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر [2].

(مُتَكَبِّينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ)، "مُتَكَبِّينَ" حال ثانية، والاتكاء هيئة الجلوس المتمكن المسترخي، وهي تدل على النعيم والرفاهية وزوال التعب والمسؤولية.

إشراقة بلاغية: تكرر "فيها" مرتين؛ الأولى للاتكاء والثانية للاستدعاء، لتأكيد استيعاب الظرفية المكانية للنعيم، فلا يخرجون منها ولا يبغون عنها حولا. وفعل "يَدْعُونَ" يشي بالسيادة؛ فبمجرد الطلب والشهوة يحضر المراد من الفاكهة والشراب دون جهد.

* (وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ)، إشراقة بلاغية ولغوية: "قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ" تركيب بياني بديع (كناية عن العفة والمحبة)، أي: قصرن نظرهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم، أو قصرن أطراف أزواجهن عليهن فلا يطمحون لغيرهن. و"أَتْرَابٌ" أي في سن واحدة (شباب متجدد)، ومادتها اللغوية من "التراب" وهو اللعب في التراب مع الصغار، للدلالة على التآلف التام.

1 - أخرجه الترمذي (2526)، وأحمد (8043) باختلاف يسير. وصحح إسناده الألباني، في صحيح الترمذي.

2 - أخرجه الترمذي (3462) واللفظ له، والطبراني (214/10) (10363)، والخطيب في ((تاريخ بغداد)) (292/2) باختلاف يسير. وصحح إسناده الألباني، في صحيح الترمذي.

المقاصد الحركية: أشار الشيخ محمد قطب إلى أنّ في هذا تلبية الفطرة الإنسانية في سياق النعيم، فالإنسان كائن روحي وجسدي واجتماعي، والقرآن يخاطب هذه الفطرة بجميع أبعادها ليرغبها في التسامي.

(هُدَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ)، (هُدَا) مبتدأ، و(ما) موصولة خبر. وقرأها كل من الإمام ابن كثير المكي، والأبام أبو عمرو البصري، والإمام يعقوب الحضرمي "يُوعَدُونَ" بالغياب النفات من الخطاب إلى الغيبة، وقراءة باقي العشرة "تُوعَدُونَ" بالخطاب مواجهة بالتشريف.

(ابن تيمية): اللام في "لِيَوْمِ" توقيفية أو سببية، أي لأجل يوم الحساب. وهذا الربط يغرس في نفس المؤمن المقارنة المستمرة بين العمل في الدنيا والجزاء في الآخرة.

(إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ): الجملة مؤكدة بـ "إِنَّ" واللام. "مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ" الجملة حال من الرزق أو خبر ثانٍ، و"مِنْ" استغرافية لرد أي توهم لانقطاع النعيم.

إشراقة بلاغية: هنا تبرز صفة الخلود والأمان المالي والنفسي، الرزق الدنيوي ينفذ ويقترن بالخوف من الزوال، أما رزق الآخرة فموصول وممتد مأمون العواقب.

* (هُدَاً وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرًّا مَآبٍ)، إشراقة بلاغة وسياقية: كلمة "هُدَاً" كلمة فصل، تستعمل للانتقال من غرض إلى غرض (اقتضاب بياني). لَمَّا فرغ من ذكر المتقين، التفت المقابل البياني فوراً إلى "الطَّاعِينَ" ليظهر التباين الصارخ، "لَشَرًّا مَآبٍ" في مقابلة "لِحُسْنِ مَآبٍ".

* (جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسَ الْمِهَادُ): "جَهَنَّمَ" عطف بيان لشر مآب. وجملة "يَصْلَوْنَهَا" حالية أو تفسيرية، والصِّلِي هو مباشرة حرارة النار والاحتراق بها.

التهكم البلاغي: "فَيَنْسَ الْمِهَادُ"؛ المهد والمهاد هو الفراش الوثير الذي يمهّد للصبي لينام مستريحاً، وتسمية النار مهاداً هنا أسلوب تهكم وتقريع لاذع يمزق النفس قبل الجسد.

* (هُدَاً فَلْيَدُوقُوا حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ): "هُدَاً" مبتدأ، وجملة "فَلْيَدُوقُوا" معترضة بين المبتدأ والخبر لتسجيل المبادرة بالعذاب، و"حَمِيمٌ" خبر المبتدأ.

(الحَمِيم): الماء البالغ أقصى درجات الحرارة. (الغَسَّاق) (بتشديد السين) ما يغسق ويسيل من صديد أهل النار ودموعهم، وجاء اللفظ على وزن "فَعَّالٌ" للمبالغة، وهو عذاب يجمع بين شدة الحرارة (السموم) وشدة البرودة والتنتن.

وُقرئت كلمة "غَسَّاقٌ" بتخفيف السين في قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن كثير، بينما قرأها الآخرون بالتشديد كحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي). والمعنى: هو

ما يسيل من جلود أهل النار وصديدهم وعرقهم، وهو من أنواع العذاب في الآخرة، نعوذ بالله من النار.

* (وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاجٌ): بلاغة: "آخِرُ" نوع آخر من العذاب، "مِنْ شَكْلِهِ" أي مجانس له في الفطاعة، "أَرْوَاجٌ" أي أصناف وألوان متشابهة في النكال. وفي هذا دلالة على تجدد العذاب وتنوعه النفسي والمادي حتى لا يألوه.

المقطع الثاني: مشهد تخاصم أهل النار

* (هُدَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ): ينتقل المشهد فجأة إلى المسرح الأخرى الحي، نسمع حوار الطغاة مع أتباعهم. الخبراء والقادة يرون فوجاً جديداً يقتحم النار (ويدخل بقوة وزحام كدخول الجيش في المأزق).

القادة يقولون: "لَا مَرْحَبًا بِهِمْ" (كلمة تقال للطارق غير المرغوب فيه، أي لا اتسعت لكم الرحاب). ثم يعللون: "إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ" مثلنا، فلا ميزة لهم.

* (قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ) البلاغة والجدل: يرد التابعون (الفوج المقتحم) بعنف: "بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ"، مستخدمين الإضراب بـ (بل) لرد التحية السافلة بمثليها. "أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا" أي أنتم سننتم لنا الكفر والضلال في الدنيا وأضللتمونا، "فَبِئْسَ الْقَرَارُ" (الاستقرار والمستقر).

(قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ): يتحول الأتباع إلى الله بالدعاء على قادتهم؛ مما يوضح زوال الروابط الدنيوية المبنية على الباطل. "عَذَابًا ضِعْفًا" أي مضاعفاً. وهو يذكرنا بآية الأعراف {لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ}.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي صلى عليه وسلم قال: ومن سنَّ سنةً سيئةً فعَمَلٌ بها، كانَ عليه وزرُّها ووزرٌ من عملٍ بها من بعده لا ينقصُ من أوزارِهِم شيئاً [1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رأيتُ عمرو بنَ عامرٍ الخُزاعيَّ يجرُّ قُصْبَهُ في النارِ، وكانَ أوَّلَ من سَيَّبَ السُّيَّبَ [2].

* (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ)، الاستفهام استنكاري ونفسي: يتلفت الطغاة في النار فلا يجدون المؤمنين المستضعفين (مثل خباب وعمار

1 - أخرجه ابن ماجة (203) واللفظ له، ومسلم (1017) بنحوه وفيه قصة، والترمذي (2675) بنحوه.

2 - أخرجه البخاري (3521)، ومسلم (2856) باختلاف يسير

وبلال وسلمان) الذين كانوا يصفونهم في الدنيا بـ "الأشرار" أو المفسدين. إنه تساؤل المبهوت الذي انمحت مقاييسه الزائفة.

(أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ): "أَتَّخَذْنَاهُمْ" أبو عمرو، وحمزة، والكسائي ويعقوب قرأوا بهمزة وصل مكسورة ابتداءً، وقرأ الباقرن بهمزة قطع مفتوحة وصلاً وابتداءً، و"أم" عاطفة متصلة للإضراب والترديد النفسي.

المعنى: هل كان خطؤنا في الدنيا أننا سخرنا منهم واستهزأنا بهم وهم في الحقيقة من أهل الجنة؟ أم أنهم معنا في النار ولكن أبصارنا زاغت فلا تراهم؟ وهذا نهاية الحيرة والعجز البائس.

* (إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ)، التقرير المحكم: "تَخَاصُمُ" بدل من "حَقٌّ" أو خبر ثانٍ لـ "إِنَّ". هذه الجملة تذييل من الله تعالى، ختم به مشهد العذاب تأكيداً على واقعيتها، وأنه حقيقة لا ريب فيها وثابتة وقوعاً.

المقطع الثالث: وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم ورسالته هي التوحيد الخالص:

* (قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)، أدوات القصر والحصر: "إِنَّمَا" أداة حصر لبيان وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم (الإنذار). "وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ" استغراق تام للنفي بدخول "مِنْ" الزائدة لتأكيد نفي الجنس والشرك تماماً.

شرح ابن تيمية – رحمه الله: اقتران "الوَاحِدُ" بـ "الْقَهَّارُ"؛ فالواحد في ذاته وصفاته، وقاهر لكل ما عداه فلا يخرج عن ملكه وخلقه وسلطانه شيء، وهو رد على مذهب المشركين الذين تفرقت أهواؤهم في آلهة شتى.

* (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ): "رَبُّ" بدل من اسم الجلالة أو خبر لمبتدأ محذوف. "الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ" ثنائية مبهرة؛ العزيز الذي لا يُغلب وقادر على العقاب، والعفار المبالغ في الستر والمغفرة لمن تاب؛ وهي تناسب مقام الإنذار والتبشير السالف.

* (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ): "هُوَ" الضمير يعود على القرآن، أو على أمر البعث والتوحيد. ونكّر "نَبَأٌ" وتوّجه بـ "عَظِيمٌ" لتهويل شأنه وفخامة موقعه الإنساني والكوني.

(أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ): تقديم وتأخير بياني: تقديم الجار والمجرور "عَنْهُ" على الخبر "مُعْرِضُونَ" يفيد الاختصاص والتعجب من حالهم؛ أي: كيف تُعرضون عن أمر بهذا الحجم والخطورة؟! وكان الواجب يقتضي كامل التوجّه والتدبير.

* (مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ): الحجة الدامغة ذكر ابن عاشور – رحمه الله أنّ الملائكة هم الملائكة. (إِذْ يَخْتَصِمُونَ" في شأن خلق آدم، ومراجعتة سبحانه). وجه الحجة: أنا لم أكن معهم، ولم يعلمني أحد من البشر بذلك، فأخبري لكم بهذا الغيب برهان لا يقبل الشك على أنني أتلقى الوحي من الله.

* (إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ): تركيب القصر البليغ: النفي "إن" الاستثنائية مع "إلا" يشكل أسلوب قصر إضافي؛ أي لا يوحى إليّ شيء في هذا الباب إلا لعله واضحة وهي أنني نذير مبين أظهر لكم الحقائق عارية جلية لتتقوا العذاب.

المقطع الرابع: قصة الخلق الأولى وأصل الكبر، * (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ): المناسبة السياقية، قال البقاعي: هذا تفصيل لخصومة الملائكة الأعلى المذكورة سابقاً. وهو بيان لأصل النبا العظيم، وبداية قصة البشرية وصراع الكفر والإيمان ومبتدأ التكليف.

* (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)، أسرار الحروف والترتيب ، يرى ابن القيم -رحمه الله- أن الفاء في "فَقَعُوا" تفيد السرعة والفورية بعد تحقق الشرط. "نَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي" تشريف عظيم للجنس البشري، إذ جمع الخلق بين طين الأرض (المادة) ونفخة رب السماء والأرض (الروح). والسجود هنا سجد تحية وتكريم بأمر الله وطاعة له، لا سجد عبادة.

* (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) التوكيد النحوي: اجتمع هنا مؤكدان: "كُلُّهُمْ" لاستغراق الأفراد، و"أَجْمَعُونَ" لإفادة الاجتماع في وقت واحد وعدم تخلف أي فرد منهم؛ تعظيماً لأمر الله وإظهاراً لكمال عبودية الملائكة وانصياعهم الفوري.

* (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)، الاستثناء وجذر العلة: استثناء متصل أو منقطع بناءً على أصل إبليس. وجملة "اسْتَكْبَرَ" تعليل للاستثناء، فالاستكبار هو علة هلاكه الافتتاحية. (وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) أي في علم الله الأزلي أو صار بلحاظ هذا الموقف في زمرة الكافرين.

* (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۗ اسْتَكْبَرْتَ ۗ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)

التدبر السلفي والأثري عند ابن تيمية – رحمه الله: إثبات صفة اليدين لله تعالى على ما يليق بجلاله دون تكيف ولا تمثيل، وفيها تشريف لأدم وطعن في كبر إبليس.

الاستفهام التقريري: (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)؟ هل حدث منك استكبار طارئ الآن بلا مسوغ، أم أنت ممن يرى لنفسه علواً دائماً ورفعة تمنعك من الطاعة؟

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)، مفسدة القياس الفاسد: "أنا خيرٌ منه" إعلان الأنانية المظلمة. ثم احتج بالقياس المادي العنصري: النار تتسامى وتضيء، والطين يثقل ويسفل. وغاب عن اللعين شرف النفخة الروحية الإلهية وأمر الخالق المطاع ذاته، فصار هذا أول قياس عُصي الله به في الكون.

* (قَالَ فَأَخْرُجُ مِنْهَا فَائِتَكَ رَجِيمًا)، الحسم الإلهي: الفاء سببية فورية، "فَأَخْرُجُ مِنْهَا" (من الجنة ومن الملائكة الأعلى والمنزلة)، "رَجِيمًا" فعيل بمعنى مفعول؛ أي مرجوم بالطرد واللعن والشهب، ومحتقر مهان.

(وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)، تقديم الجار والمجرور: "عَلَيْكَ" يفيد الاختصاص، أي اللعنة ملازمة لك ومحيطة بك لا تفارقك. وإضافتها "لَعْنَتِي" دلالة على الخزي المطلق، وتحديد المدة "إِلَى يَوْمِ الدِّينِ" تأكيد للدوام الأبدي لأن ما بعد يوم الدين هو الخلود التام في العذاب.

(قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، الخبث الشيطاني وسر الطوية: لم يطلب إبليس التوبة أو العفو، بل طلب "الإنظار" (الإمهال وتأخير الموت) إلى يوم البعث، وهدفه الذكي الخبيث أن ينجو من الموت مطلقاً لأن يوم البعث لا موت بعده.

(قَالَ فَائِتَكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)، الحكمة الإلهية: أجابه الله لحكمة بالغة ليجعله أداة ابتلاء واختبار للبشر، ولكنه قيد الإنظار بـ "يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ" وهو وقت النفخة الأولى التي يموت فيها الخلق، حاسماً أطماعه في الخلود بلا موت.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)، القسم والبلاغة الحركية: أقسم إبليس بـ "عزة الله"؛ وهي لفظة عجيبة، فهو يعلم أن عزة الله وقدرته غالبية، واستغل هذا الحلف ليعلن الحرب الشاملة على الذرية "لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ" بتوكيدين (اللام الموطئة للقسم ونون التوكيد الثقيلة).

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ)، الاستثناء والوعي الشيطاني: استثنى إبليس (بقراءة فتح اللام "المُخْلِصِينَ" وهي قراءة الجمهور، أي الذين أخلصهم الله واصطفاهم برحمته، وبقراءة الكسر "المُخْلِصِينَ" قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ويعقوب وابن عامر، أي: الذين أخلصوا دينهم لله. إبليس يعترف بعجزه أمام معاقل الإخلاص الحقيقية.

(قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)، النحو والقراءات البديعة: في رفع الحق ونصبه وجوه؛ "فَالْحَقُّ" مبتدأ محذوف الخبر (فالحق قسمي) أو خبر لمبتدأ محذوف (فأنا الحق). "وَالْحَقُّ أَقُولُ" منصوب بـ "أقول" المخرجة بياناً فاصلاً.

المقصد والعدل الإلهي: حسم حتمي لنتيجة المعركة؛ جهنم هي نهاية المطاف لكل من رضي بإبليس هادياً وإماماً، وتكرار "مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ" لقطع أي أمل في الشفاعة والنجاة لمن اتبع هواه واستكبر.

هكذا نجد في هذا المقطع الرابع تحذير أيما تحذير من غواية إبليس وجنوده، فقد أقسم بكل ما أوتي من إيمان أن يغوي ذرية آدم القلة المخلصة.

وفي سورة الأنعام: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) [الأنعام:128].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقال لآدم: أخرج بعث النار، قال: فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعند ذلك يشيب الصَّغِيرُ، وتضع الحامل حملها، وترى النَّاسَ سُكَارَى وما هم بسُكَارَى، ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ، قال: قلنا: فأين النَّاجي يا رسولَ الله؟! قال: أبشروا! فإنَّ واحداً منكم، وألفاً من يأجوج ومأجوج، ثمَّ قال: إني لأطمع أن تكونوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ! فكَبَّرْنَا، وحمدنا الله، ثمَّ قال: إني لأطمع أن تكونوا ثلثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ! فكَبَّرْنَا وحمدنا الله، ثمَّ قال: إني لأطمع أن تكونوا نصفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إنَّما مثلكم في النَّاسِ كمثلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أو كمثلِ الشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ [1].

المقطع الخامس: ختام السورة وإعلان البلاغ العالمي: (قُلْ * مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)

الظلال والمقاصد الحركية يقول سيد ومحمد قطب (في ظلال القرآن): هنا يقف الرسول صلى الله عليه وسلم مجرداً من أي مصلحة شخصية أو كسب دنيوي. (مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ) مادة الصدق المحض.

(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) التكلف هو ادعاء ما ليس حقيقياً بصعوبة وتصنُّع. القرآن عفو، صادق، مناسب، متوافق مع الفطرة، والرسول لا يتصنع النبوة ولا يتكلف الأقاويل والقصص، بل يبلغ وحيماً صافياً يتدفق بالحق.

* (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)، العالمية والإطلاق: قصر بـ "إن" النافية و"إلا" الاستثنائية. هذا القرآن ليس حكراً على قريش أو العرب، بل هو "ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ"؛ إنسهم وجنهم، زمانهم ومكانهم، دستور حياة ممتد يتجاوز حواجز الجغرافيا والتاريخ.

* (وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)، هذا من القسم المقدر والتهديد الهادئ: الجملة مؤكدة باللام ونون التوكيد. "بَعْدَ حِينٍ" إبهام زمني مقصود لزيادة الرهبة. هذا الحين قد يكون عند الموت، أو يوم بدر والفتح، أو يوم القيامة حين يتكشف الغطاء. إنها كلمة الوداع والختام الصارمة للسورة، ليبقى صدى الوعيد والنبأ العظيم يتردد في الأفاق والنفوس.

1 - أخرجه البخاري (3348)، ومسلم (222) بلفظه.

خريطة استنتاجية لمقاصد السورة والآيات.

البعد	تجليه في الآيات
المقصد السياقي	ربط قصة آدم وإبليس بتخاصم أهل النار وتكبر قريش؛ فالجذر المشترك لكل هلاك هو "الكبر".
الجمال البياني	المقابلات الصارخة (المتقين مآب حسن ↔ الطاغين مآب شر)، (جنة مفتحة الأبواب ↔ جهنم يصلونها فبئس المهاد).
الأبعاد النفسية	تصوير حيرة أهل النار وحواراتهم الهابطة المليئة بالتلاوم والشتائم بما يعكس ضياع منطقهم.
المرتکز العقدي	التوحيد المطلق القائم على صفتي العزة والمغفرة المستلزم لإخلاص العبودية والتحرر من غواية الشيطان.

المراجع